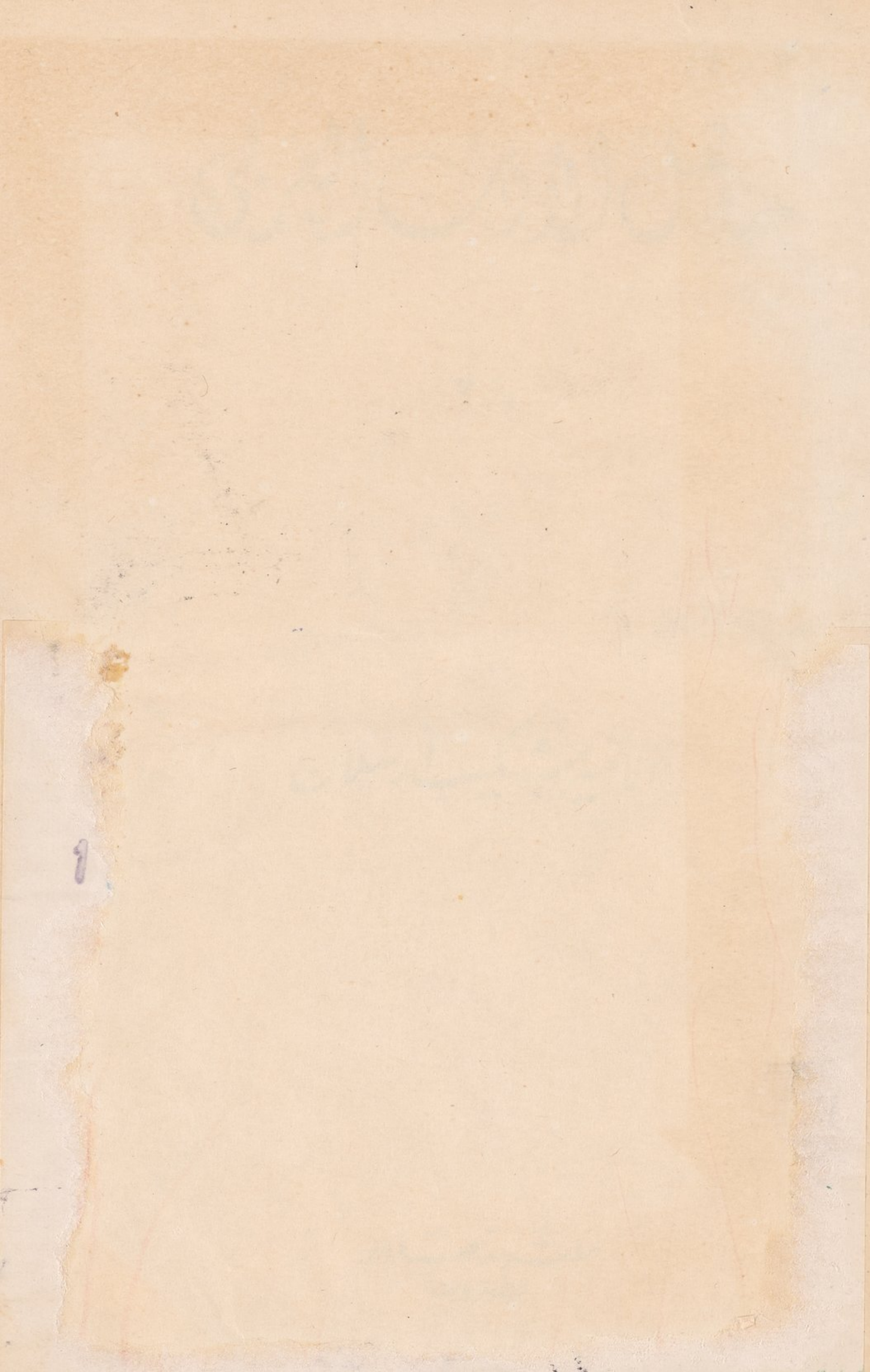
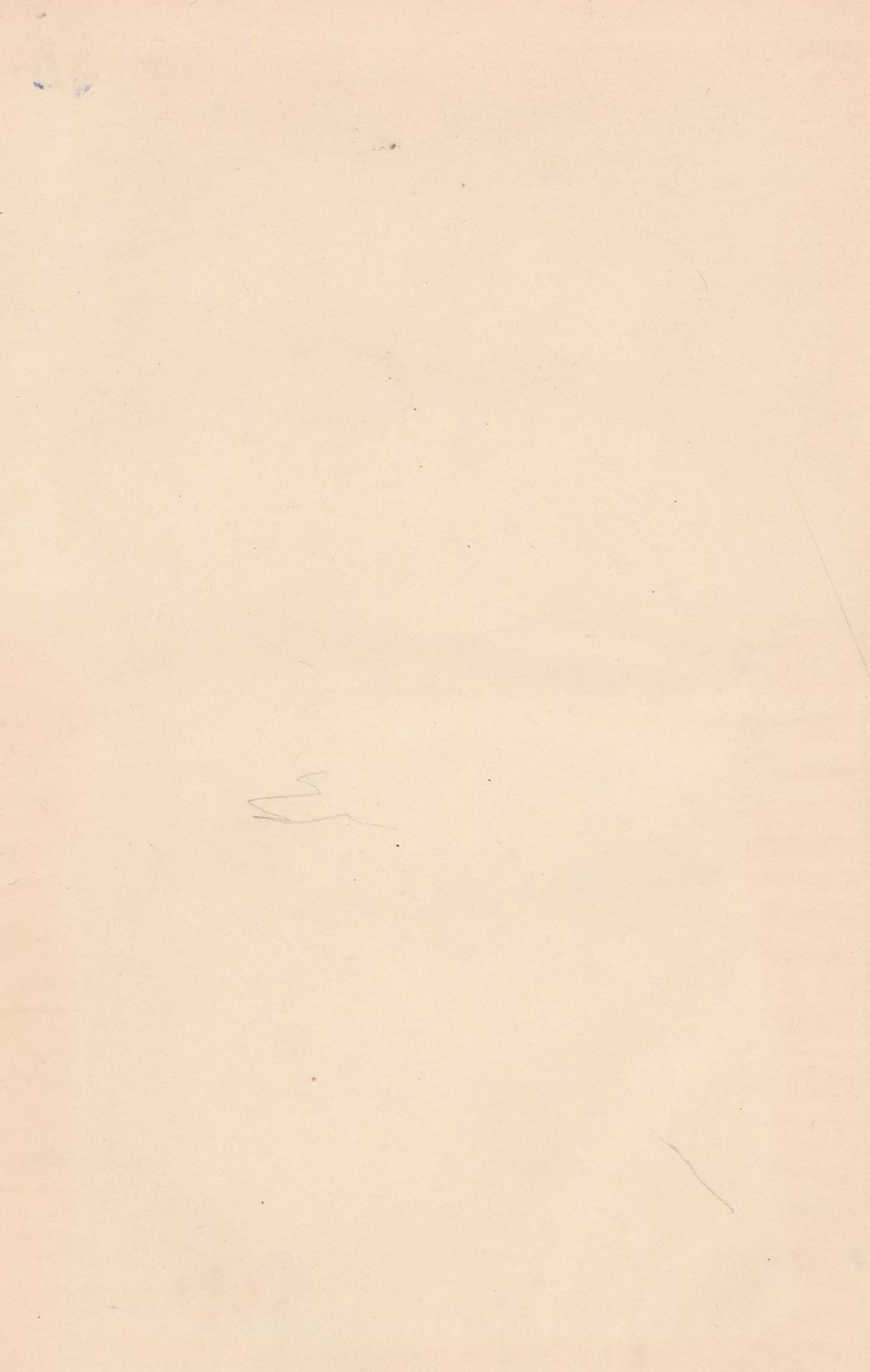
مناهل الادب العربي

الامير شكيب ارسلان







مناهل الأدب العربي

٢٨

مختارات من

الأمير شكيب أرسلان

مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل : ٤٥ – ١٩٥٠

الامير شكيب ارسلان[1]

١٨٦٩ - ١٩٤٦

هو ابن الامير حمود ارسلان من اسرة شهيرة في تاريخ لبنان ، ولد في الشويفات ، وتلقى العلم في مدرسة الحكمة ، فأخذ العربية عن الشيخ عبدالله البستاني ؛ وكان استاذه شديد الاعجاب به ، كثير الثناء عليه . روى الشيخ خليل تقي الدين انه سأله قبل وفاته بيومين: اي تلاميذك احب اليك؟ فأجابه: أحب تلاميذي اليّ الامير شكيب ارسلان .

---

١ قد يكون تاريخ ولادة الامير في هذه السنة أو في السنة التي بعدها . فقد جاء في كتابه : « شوقي او صداقة اربعين سنة » المطبوع سنة ١٩٣٦ : « سنة ١٨٩٠ كانت اول قدمة لي الى مصر و كنت بين العشرين والواحدة والعشرين . » وقال في مكان آخر منه : « فقد كنت في سنة ١٨٩٢ في الثالثة والعشرين من عمري . » وهذا يؤيد التاريخ الذي اعتمدناه، كما ان كاتب سره الشيخ محمود عبد الصمد يعتمد التاريخ نفسه بالسماع عنه.ولكن جاء في ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٥ فوق قصيدة له : « وقلت وداعاً لمدرسة الحكمة في ختام سنة ١٨٨٦ و كنت ابن ١٦ سنة . » وجاء فوق قصيدة اخرى في رثاء سليم البستاني سنة ١٨٨٥ : « و كنت ابن ١٥ سنة . » وقال في كتابه : « السيد رشيد رضا» المطبوع سنة ١٩٣٧ : « وكان مولعاً بقراءة ديواني المسمى بالباكورة الذي نشرته عندما كنت في السابعة عشرة من عمري وذلك سنة ١٨٨٧» وهذا يجعل ولادته سنة١٨٧٠.

ونشر في السابعة عشرة او الثامنة عشرة من عمره مجموعة شعر صباه باسم « الباكورة » سنة ١٨٨٧ ، وكان الشيخ محمد عبده يومئذ في بيروت ، فاتصل به ، وافاد من آرائه الاصلاحية للاسلام والمسلمين . ورحل الى مصر سنة ١٨٩٠ ، ولم يطل فيها مكوثه ، وأخذ من ذلك الحين يراسل الاهرام ، ويكتب فيها أبحاثاً سياسية لم يضع اسمه عليها ، فكانت تكتفي الجريدة بأن تشير الى انها بقلم احد الافاضل السياسيين .

وكانت له أسفار الى الاستانة وفرنسا وانكلترا ، ثم عيّن قائمقاماً على الشوف سنة ١٩٠٨ . ولما هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ، اخذ يستجيش العثمانيين والمصريين لامداد اخوانهم ، فعهدت اليه جمعية الهلال الأحمر المصري في قيادة ستمائة جمل تحمل ارزاقاً للمجاهدين في برقة ، فسار بها ومعه جماعة من اتباعه من جبل لبنان ، فبقي في موطن الجهاد زهاء ثمانية أشهر . وبرح برقة سنة ١٩١٢ قاصداً الى الاستانة ، وكانت الحرب البلقانية متوقعة الحدوث ، فخشي ان تصرف الدولة العثمانية عن مساعدة الطرابلسيين ولو سراً ، فجاء لهذا الغرض . وفيما هو بالاستانة كلفته جمعية الهلال الاحمر المصري أن يكون مفتشاً على بعثاتها لدى الدولة ، فبقي عدة اشهر قائماً بهذه المهمة . ثم استدعاه الخديوي الى مصر واشار عليه بأن يبقى فيها ، توقعاً

لحوادث خطيرة تستلزم وجوده ، فكره الامير ان يناوىء الاتحاديين في تلك الازمة الشديدة ، وكان زمام الدولة يومئذ في أيديهم ، اذ ان الغرض من بقائه توجيه حملة شديدة عليهم في اثناء حرب البلقان ، فوقع بينه وبين أعداء الاتحاديين نفور من أجل ذلك .

وسافر سنة ١٩١٤ الى المدينة المنورة لانشاء مدرسة فيها . ثم انتُخب مبعوثاً عن حوران في المجلس العثماني، حتى اذا وضعت الحرب العالمية أوزارها قصد الى مرسين ، فأقام بها مدة مع عيلته . ورحل بعدها الى المانيا ، وكان الجيش الفرنسي قد دخل الى دمشق ، وقضى على الحكومة العربية السورية ، فتنادى جماعة من السوريين والفلسطينيين الى عقد مؤتمر بأوربة للاحتجاج على احتلال فرنسا لسورية ، والانكليز لفلسطين ؛ فانعقد المؤتمر في جنيف سنة ١٩٢١ ، فانتخب الامير ميشال لطف الله رئيساً ، والامير شكيب ناموساً أول . ثم استقدم عيلته من مرسين سنة ١٩٢٥ ، وأقام من ذلك الحين في سويسرة ليكون مع رجال الوفد السوري الفلسطيني على مقربة من عصبة الامم ، مجاهدين في سبيل تحرير بلادهم . غير أنه سافر الى نيويرك سنة ١٩٢٧ ، ونشر في جريدة مرآة الغرب مذكراته عن جمال باشا ، ومقاومته له ، ومحاولته ردعه عما

أتى به من الاعمال التي أغضبت العرب ، وأضرّت أبلغ الضرر بالدولة العثمانية ، وكان قد نشر شيئاً منها في جريدة المنار المصرية . ثم كتب هذا التاريخ مرة ثالثة في ضمن ترجمة نفسه، واستودعه مكتب المؤتمر الاسلامي في القدس، لينشر بعد وفاته.

وفي سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩) حجّ بيت الله الحرام ، فأوحت له هذه الرحلة كتابه : « الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف » كتبه بلوزان سنة ١٣٤٩ هـ . ونشرته مطبعة المنار سنه ١٣٥٠ هـ .

وقام سنة ١٩٣٠ برحلة الى اسبانية فطاف أكثر انحائها ، واقفاً على آثار العرب فيها . وكان في سنة ١٨٩٧ قد ترجم عن الفرنسية رواية آخر بني سراج لشاتوبريان ، وذيّلها بخلاصة عن تاريخ العرب في الاندلس ، ونشرتها مطبعة الأهرام . ثم اعادت نشرها مطبعة المنار سنة ١٩٢٤، واضاف اليها الامير كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، وهي آخر دول الاسلام في الاندلس ، أخذه عن نسخة مطبوعة بمدينة مونيخ عاصمة بافارية سنة ١٨٦٣ ؛ وأَتبع به أثارةً تاريخية في أربعة مراسيم سلطانية للسلطان ابي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الاحمر، مأخوذة عن نسخة مطبوعة في باريس سنة ١٨٦٣ . فكانت رحلته الى اسبانية مقدمة لوضع تاريخ كبير وسمه باسم « الحلل

السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية » جمع فيه ما قدر ان يعثر عليه من الفصول المتعلقة بالاندلس ، مأخوذة عن مؤرخي العرب القدماء ، وعن مصنفات المستشرقين ، فأخرج منه ثلاثة أجزاء ، نشر الأول والثاني سنة ١٩٣٦ والثالث سنة ١٩٣٩ . وتوفي قبل ان يظهر الباقي منه ؛ ومجموع هـذا التاريخ عشرة أجزاء كما يخبرنا في فاتحة الجزء الثالث .

وفي سنـة ١٩٣٤ قررت لجنـة المؤتمر الاسلامي في القدس ارسال وفـد الى جزيرة العرب للاصلاح بين الملك ابن سعـود والامام يحيى ، فانتدب الامير من جملة اعضائه ، ثم عاد الى جنيف فبقي الى سنة ١٩٣٧ ، وكان قـد تم الاتفاق الفرنسي السوري ، فأجازت له السلطة الفرنسية دخول البـلاد الواقعة تحت انتدابها ، فجاءهـا في تلك السنة ، وصـار انتخابه رئيساً للمجمع العلمي بدمشق ، وكان قبـلاً من أعضائه . وفي أوائل سنة ١٩٣٩ رجع الى سويسرة ، عازماً على القفول بعيلته الى وطنه ، فتم له ذلـك في أواخر السنة ، فتلقى وهو في الباخرة برقية من مصر تنبئه بأنه أصبح يستطيع الدخول اليهـا ، فنزل في الاسكندرية ثم انتقل الى القاهرة . وكانت السياسة الدولية قد أخذت بالتقلب ، فتعـذر عليه المجيء الى لبنـان وسورية ، فبقي في مصر مدة ستة أشهر ، ثم عاد الى سويسرة فمكث بها

الى سنة ١٩٤٦ ، حيث آب الى وطنه ، وتوفاه الله في السنة نفسها .

كان الأمير شكيب من أقطاب السياسة العربية والاسلامية، جاهد في سبيلها بأعماله و كتاباته، رامياً الى ما رمى اليه استاذه الشيخ محمد عبده وصديقه السيد رشيد رضا صاحب المنار ، من الاصلاح الديني والاجتماعي ؛ وله آثار كثيرة في التاريخ والسياسة والاجتماع ، منها ما هو مطبوع ، وقد ذكرنا بعضه ، وبعضه الآخر أمثال : كتاب أحسن المساعي في تاريخ الامام الاوزاعي ؛ ولماذا تأخر المسلمون ؛ وغزوات العرب ؛ وشوقي او صداقة اربعين سنة ؛ والسيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة ؛ وحاضر العالم الاسلامي ، تأليف ستودارد الامريكي، نقله الى العربية عجاج نويهض ، وأضاف اليه الامير فصولاً وحواشي وتعليقات عن أحوال الامم الاسلامية وتطورها الحديث ، فجاء الكتاب في أربعة أجزاء يشتمل معظمها على ما خطته يراعة الأمير ؛ وتاريخ ابن خلدون ، يحتوي على فصول تاريخية ألحقها بالجزء الأول منه ، تعليقاً على غوامض ابحاثه، واستفاض على الأخص في تاريخ الاتراك . وله ديوان شعر نشره سنة ١٩٣٥ ، وضم اليه مجموعة الباكورة. وله من الكتب المترجمة اناطول فرانس في مباذله . واما آثاره غير المطبوعة ، فمنها

كتاب القول الفصل في رد العامي الى الاصل ؛ وبيوتات العرب في لبنان ؛ واللهجات العربية . وله رسائل كثيرة في مختلف الشؤون السياسية والدينية والاجتماعية ، تحتاج الى جمع وتنسيق . وميزة الامير تقوم على نثره أكثر منها على شعره ، فهو كاتب رائق الديباجة ، متين التعبير ، بارع التصرف في مذاهب الكلام ، لا يختلف انشاؤه في الأبحاث الأدبية عنه في الابحاث العلمية ، وكان يلقب بأمير البيان .

ابن خلدون وسابقوه في الاجتماع

ان القسم السياسي من فلسفة افلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائي الحافظ للمجتمع الانساني الكافل لانسجامه . وهو يرى ان المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة » . وفي كتاب افلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشري يقول فيه : ان المدنية انما هي وليدة الحاجة ، وهي في الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . وان هذه الوسائل لا تتهيأ الا بتوزيع الاعمال . فمتى اجتمع عدة اشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج اليه الآخرون فهذه هي المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشيء كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . اذ المدنية ليست مجمع اشخاص متماثلين متساوين في كل شيء ؛ بل هي بالعكس مجمع اشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلاً يأتي المتخصص بعمل

السكك الزراعية ، وبجانب اصحاب المحاصيل تأتي الطبقة القائمة بالأخذ والعطاء في البر والبحر . وهذا اتقان للعمل واكمال له ، ولكن المبدأ الاصلي واحد . ثم ان هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسعة المجتمع ويصير اصحابها طبقات متفاوتة ، فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة اذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس او الحفظة تهيمن على اجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث اي المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم اساس كل مدنية .

ويقول افلاطون: انه لا يجوز استغلال مدنية لفائدة شخص واحد ، وان المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد او طبقة ، وانما هو اسعاد المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فاذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأي افلاطون ان احتياجات المجتمع المنظم يجب ان ينظر فيها الى طبيعة الخلق ، اذ مهما كان الثقاف ذا تأثير فان الاصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندي ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : ان اقسام هذه الغرائز في البشر هي تحت تأثير البيئات التي يعيشون بها ، فالعلوم الحسابية التي تدرّج بعض الناس الى الفلسفة هي عند بعض الشعوب

كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة في التحيّل لا في العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأي الا تعسفاً .

ويوصي افلاطون كثيراً باختيار ذوي الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذاكرة الخ .

ومن وصاياه تنظيم اعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده ويحصر حركته في هذا العمل ولا يتجاوزه الى غيره . واذا تأمل القارىء في عقلية افلاطون الاجتماعية وجدها داخلة في علم النفس ، وفي علم الأخلاق ، فهو يذكر الاحوال لا على ما تكون عليه في الغالب ، بل على ما يجب ان تكون عليه .

فالاساس عند افلاطون هو ادبي محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية في البشر حتى يأتي العمل اجود ما يمكن . الا ان افلاطون يعتقد انه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردي ؛ ويدخل افلاطون حينئذ في شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم ان نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد الا اجمالاً . وانما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه الى ان افضل حاجز للمدنية عن التردي ، وأحسن وسيلة

لانتظام جهود المصالح، انما هو تسليم زمام امورها الى الحكماء، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تبلغ المدنية السعـادة الا اذا كان الفيلسوف ملكاً ، او الملك فيلسوفاً .

ومن رأي افلاطون ان كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطوارىء ، وان السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بها في كل زمان ومكان . ويترتب على رأي افلاطون هذا ان رجل الدولة يكون أحيانـاً فوق القواعـد والأوضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية انها مجمع منازل وعائلات تتوخى في معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف افلاطون في حصره المدنية بتوزيع الاعمال ومجرد المبادلة ، ويقول : ان الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وان عـلم السياسة هو العلم الباحث عن الاسباب والشروط الكافلة للوصول الى هذه الغاية، وهو يأتي بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيات . ومن رأيه ان الاستقـلال الزراعي هـو شرط في صحة الأخلاق، وانه كلما استقلت مملكة عن غيرها في احتياجاتها المعاشية استقلت في امورها السياسية، والعكس بالعكس، وكلما كثر اخذ المملكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسي وتعرضت للحروب ، وهي حقيقة قد انطبخت حتى احـترقت ،

وقضية قد ابتقرت حتى انفلقت ، فالامة التي ليس لها استقلال اقتصادي هيهات ان يتم لها استقلال سياسي .

ومما يذهب اليه أرسطو أن الرق امر طبيعي لا ينبغي التعجب منه ، وان الطبيعة في قسمتها البشر الى طبقتين ، سادة وأرقاء ، ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد في آسيا في الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : ان مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذي يمكنه ان يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فاليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو في ذلك اشد المبالغة ، ورأى الناس في رأيه هذا مجرد تسويغ وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر في الشرق .

اما اعتدال امزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا كثر فيهم الحكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الاقاليم وهو :

« الاقليم الرابع اعدل العمران ، والذي حفافيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والاول والسابع ابعد بكثير ، فلهذا

كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوات فانما توجد في الاكثر فيها. ولما نقف على خبر بعثة في الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التي فيها الحر الزائد، وذلك لأن الأنبياء والرسل انما يختص بهم اكمل النوع في خَلقهم وخُلقهم.»

هذا وان أرسطو يرى للأسرة غاية ابعد وأسمى من الغاية الاقتصادية، وهي انه لا بد لكل عائلة من رأس، وان هذا الرأس هو الرجل الذي يدبر النفوس القاصرة اي نفوس النساء والاولاد. ومعنى النفوس القاصرة ليس انها نفوس أرقاء، بل معناه انها نفوس ضعاف محتاجة الى المعاونة. ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة، بل كان حكمه عليها حكم الوالي على رعيته، وفي العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية.

ثم ان أرسطو لا يعد في الوطنيين الاحرار طبقة الصناع والأكرة، بل يقول ان اعمال هؤلاء خسيسة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة، وللاشتغال بسياسة المجتمع. وهذا القول مردود من جهة شقه الأول، وهو ممارسة الفضيلة

التي تكون عند الصناع والزرّاع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثاني وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فان هذه الطبقات قلّما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : انها توجد حيث يكون الرجالات الاحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، وانها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الاصلاء والاغنياء . وقال : ان الفروق الكبيرة في الثروة تؤدي الى الحكم المطلق المنحصر في بعض البيوتات ، وان الغاية المقصودة من بناء المدينة هي تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلي بمكارم الاخلاق ، وذلك لا يكون الا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً الا ببعض شروط اقتصادية لا مناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التي لا تقدر ان تعيش الا من كسب ايديها . فهي بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولا تقصد الاجتماعات الشعبية الا عند الضرورة . اما اذا وجد في المجتمع من يستغني عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فان الديموقراطية تضعف في مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم ابو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي في مبادىء العمران أيضاً وأجاد وأفاد ونقل كارادوفو اكثر نظرياته السديدة في المدنية . (تاريخ ابن خلدون)

كيف خلع عبد الحميد

...وفي زمن السلطان عبد الحميد ساءت الاحوال في مكدونية لأن السلطان كان اكثر همه في المحافظة على شخصه . وكان شديد التخيل الى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد ، وليس من الصحيح ان السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمي اكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية اخبار الجواسيس القى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم واصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأي العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ، ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل ، وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده ، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الادارة ويعللون سوء الادارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية . وهذا وان كان صحيحاً الى حد محدود ، فليس بصحيح على اطلاقه ؛ لأن خطوب المملكة كانت لها اسباب داخلية وخارجية ، لا

تذكر قضية الجواسيس في جوانبها شيئاً . فأما العوامل الداخلية فهي انحطاط درجة التعليم عما يجب ان تكون ، واستيلاء الجهل ، وانقسام سكان المملكة الى أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ما هو عدو عامل لا يرضيه الا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر في صدور الناس اجمعين من قرب اجل هذه الدولة فصارت اشبه بالمريض الذي انقطع الامل من شفائه .

فأما العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوربية في اجزاء هذه السلطنة كل دولة منهن تحب ان ترث شقصاً من هذه التركة، فهي تدس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتى تتوصل منها الى مأربها .

ولو كان سهم واحد لاتقيته ولكنه سهم وثانٍ وثالث

بل كانت الاسهم التي تتلقاها الدولة العثمانية مما لا يعد ولا يحصى، ولكن المسلمين في السلطنة نظراً لمعرفتهم ان هذه الدولة هي ملجؤهم الوحيد ، كانوا لا يريدون ان يعتقدوا زوالها ، فكانوا يتأوهون من جهة لحالتها هذه ، ويجتهدون من اخرى في اصلاحها ، ويظنون ان الاصلاح ليس بالمستحيل ، وأن في استطاعة الدولة ان تنهض وتسترجع مكانها السابق ، وذلك اذا كان السلطان يقلع عن سياسته الخاصة وعن حصر الأمور في يده،

ويترك الاهتمام بالجواسيس ، ويطبق على المملكة القانون الاساسي الذي كان بدأ به في اول سلطنته ثم عطله تعطيلاً موقتاً فاستمر هذا التعطيل ثلاثين سنة . وكان الشبان على الخصوص يعتقدون ان لا نجاة للمملكة من السقوط الا باعادة الدستور ، وانتخاب مجلس الأمة ؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الاتراك المتشبعين بمبادىء الحرية قد هجروا بلادهم وأقاموا بباريس وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدي ، ويبثون روح الثورة بين الناشئة ؛ فكان السلطان يجتهد في اسكات هذه الفئة التي كانت تشوّه سمعته في العالم الاوربي ، وكثيراً ما كان يتمكن من ارضاء اناس من هؤلاء الشبان بتقليدهم مناصب عالية ، أو باغداق النعم والعطايا عليهم ، ولكن بقي هناك من هذه الفئة من كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتهم ، بل لبثوا يرفضون جميع ما يعرض عليهم من اموال أو مناصب . وكان في طليعة هؤلاء احمد رضا بك المقيم بباريس والذي كان يصدر جريدة حرة باسم « مشورت » تدخل الى البلاد العثمانية سراً ، والدكتور ناظم الذي كان من أركان جمعية الاتحاد والترقي ، وشنقه مصطفى كمال من عهد قريب ، وغيرهما .

ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل الى اسقاط

السلطان عبد الحميد مدت ايديها الى هؤلاء الاتراك الذين كانوا قد هجروا اوطانهم الى أوربا ، وشرعوا في التحريك لاجل اعلان الحكم الشوري في تركيا . وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضاً في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها اغراض غير اغراض الاخرى في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي مقاومة السلطان ، والعمل لاسقاطه . وأخيراً انتدب بعض شبان الاتراك وألفوا جمعية سرية في سلانيك ، وسموها « جمعية الاتحاد والترقي » وأخذوا يجتذبون الى جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى ان بعض المستخدمين في الحكومة انضموا الى هذه الجمعية ، وكانوا يجتمعون في المحافل الماسونية حتى يتقوا الشبهة فيهم . وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجهاً الى استجلاب الجيش حتى تصير في ايديهم القوة اللازمة لخلع السلطان ، وتوفقت هذه الجمعية الى استجلاب عدد كبير من الضباط ، ولما كان عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع في بلاد الرومللي ، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الرومللي منهم ، وكانوا يعملون في جوار سلانيك ؛ تسنى لرجال الاتحاد والترقي ان يتصلوا بضباط الجيش ، وان يقنعوهم بأن هذه العصائب البلغارية

واليونانية انما تشاغب وتعثو في الارض لأجل الحصول على ادارة حسنة يستريح في ظلها السكان، وهذه الادارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة، فأما اذا امكن خلعه، وجعل الحكم دستورياً شورياً كما هو في سائر الممالك المتمدنة، فان جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها، وتخلد جميع الاقوام الى السكينة وهكذا تنجو السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها. فشرب اكثر الضباط هذه المبادىء التي ليس بعجب ان تقبلها عقولهم، لأن المسيحيين من أروام، وبلغار، وسربيين كانوا يدّعون انهم لا يلجأون الى الثورة الا من سوء الادارة، وأنه اذا اصطلحت الادارة فهذه تكون غاية امانيهم ويدخلون في الطاعة.

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً بل حقيقة الحال انه سواء اصطلحت الادارة العثمانية ام لم تصطلح فالبلغار انما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار الى مملكتهم، واليونان انما يسعون في ضم البلاد التي اكثرها منهم الى مملكتهم، ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الاتراك ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً. ولكن شبان الأتراك منهم من آمن باقوال العصائب اليونانية والبلغارية ومنهم من لم يكن يؤمن بها لكنه كان يجد ان طريق النجاة لن تكون الا باعادة الدستور، وجعل الحكم في السلطنة للشورى كما هو في سائر البلاد.

وبلغ السلطان سريان هذه الحركة الى الجيش المرابط في الروملي ، فراعه الامر وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد اسماعيل ماهر باشا لأجل الفحص عن هذه الحركة ، فرجعت هذه اللجنة وقررت للسلطان ان اكثر الضباط دخلوا في جمعية الاتحاد والترقي ، وأن الخطب عظيم ، وان الخرق اتسع على الراقع ، وكان حسين حلمي باشا مفتشاً عاماً لولايات الروملي ، فكتب هو أيضاً الى السلطان يعظّم من شأن حركة الجيش ، ويشير على السلطان باعلان الدستور . وفي أثناء ذلك ذهب انور بك وعصى بشرذمة من الجند في جوار سلانيك ، كما ان نيازي بك استولى على مدينة مَنَستر وكاد يعلن فيها الدستور . ولما بلغ جمعية الاتحاد والترقي ما قام به انور ونيازي من العصيان اشتدت عزيمتهم واجتمعوا حول منزل حسين حلمي باشا وطلبوا اعلان الدستور ، وأصبحت سلانيك في أيديهم. ولما وصل الخبر الى السلطان استشار الصدر الاعظم ، وكان الصدر يومئذ فريد باشا الارناؤوطي ، فأشار عليه باعلان الدستور ، وذلك تسكيناً للفتنة ، وكذلك جمال الدين افندي شيخ الاسلام أبدى له ضرورة هذا الاعلان، وكان احمد عزّت باشا الدمشقي مستشار السلطان — كما لا يخفى — وهو المطلع على ماجريات هذا الخطب ، قد عارض في اعلان الدستور بكل قوته ، ولكن الوزراء

خالفوه ، وهو نفسه الذي قال لكاتب هذه السطور عندما اجتمعت به بعد الحرب العامة هنا في جنيف : ان الذي اثر في السلطان بالدرجة الأولى حتى اعلن الدستور هو جمال الدين افندي شيخ الاسلام . اما كوجك سعيد باشا ففي أول الأمر نصح للسلطان بالثبات ، وبقمع هذه الحركة بالقوة ، الا انه بعد ذلك جاءت الاخبار بأن الفيلق الثاني الذي مركزه ادرنة انضم الى جمعية الاتحاد والترقي ، فوقع الرعب في قلوب الوزراء جميعاً ، وعادوا فأشاروا على السلطان باعلان الدستور اتقاء لشر أعظم ! والحقيقة ان القوة التي في يد جمعية الاتحاد والترقي كانت ضئيلة ، وكان الجيش اكثره طائعاً للسلطان ، ولكن قوة الجمعية كانت معنوية ، والأمة — حتى في نفس قصر يلدز — أصبحت تعتقد ان لا نجاة للدولة الا باعلان الدستور ، وعقد مجلس الأمة .

والخلاصة ان السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسي وأمر بانتخاب المبعوثين ، وتعين كوجك سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة . فأراد سعيد باشا اعطاء السلطان بعض حقوق في تعيين الوزراء خلافاً للقانون الاساسي ، فوقع بسبب ذلك خلف بين الوزراء ادّى الى استعفاء الوزارة ، فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا وتألفت وزارة جديدة فيها رجال اماثل مثل رجب

باشا الارناؤوطي ناظر الحربية ، وحسن فهمي باشا ناظر العدلية، وغيرهما . ولكن وزارة كامل باشا هذه شاهدت حوادث ذات بال ، مثل اعلان بلغاريا استقلالها التام ، ومثل ان دولة النمسا اعلنت استلحاق ولايتي البوسنة والهرسك ، ومثل ان الأروام اعلنوا الحاق جزيرة كريت باليونان ، وكان اعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من اميرهم فرديناند الى السلطان عبد الحميد في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٠٨ ، فأرسلت الدولة جواباً للحكومة البلغارية بأنها لا تستطيع الاعتراف بعمل مخالف لمعاهدة برلين، وكتبت الى الدول تدعوهن الى عقد مؤتمر لأجل النظر في ما اقدمت عليه بلغاريا من خرق هذه المعاهدة ، وكذلك احتجت الدولة على استلحاق النمسا والمجر للبوسنة والهرسك برغم كون النمسا والمجر اجتهدتا في استعطاف الدولة العثمانية ، وعرضتا عليها تعويضات مالية وردّتا لها « سنجق نوفيبازار » من اصل البوسنة .

وفي اثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعية الاتحاد والترقي وبين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية، لأن الجمعية كانت هي سبب اعلان الحرية ، فكانت تريد بطبيعة الحال أن تسيطر على الحكومة ، ولم يكن هذا الأمر ليحصل بدون اصطدام آراء مفضٍ الى النزاع ، وكانت الأمة مشغولة بانتخاب المبعوثين ، ولم

تكن الآراء متفقة في قضايا الانتخابات مما يحصل في كل مملكة ، فانتهى الأمر بسقوط كامل باشا ، وكان مجلس الامة قد انعقد وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه وأقسم يمين الأمانة للدستور. ولكن لم يكد المجلس ينعقد حتى وقع الشقاق بين المبعوثين ، فمنهم مبعوثو جمعية الاتحاد والترقي ومبدؤهم كان المركزية التامة ، أي حصر كل الادارة في مركز الدولة ، وبناء الاصلاحات كلها على هذا الأساس، ومن البديهي ان مبدأ كهذا سيعطي السيادة للعنصر التركي الذي له المقام الأول في السلطنة ، فلهذا كان العرب والارناؤوط والأروام والارمن ضد هذا المبدإ ، لأنه يجحف بحقوقهم ، فتألف من هؤلاء حزب تسمى بحزب « الأحرار » وانضم اليهم أيضاً كثير من الاتراك المناوئين لجمعية الاتحاد والترقي ، ففي مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين ، وتغلب الاتحاديون على خصومهم ، وهكذا سقط كامل باشا وجاء مكانه حسين حلمي باشا، ففي مدة هذا الصدر تسوّت بين تركيا والنمسا قضية البوسنة والهرسك ، وذلك بدون عقد مؤتمر دولي ، لأن الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولي فتح ابواب جديدة عليهم، فاسترجعت الدولة سنجق نوفيبازار ، واستأدت مليونين ونصف مليون جنيه بدلاً عن الأراضي العائدة في البوسنة للدولة خاصة ، وتقرر بقاء التشكيلات الدينية الاسلامية

في البوسنة والهرسك مربوطة بالدولة العثمانية ، كما كانت في السابق، وعقدت الدولة مع النمسا معاهدة تجارية، ثم رجعت الى مسألة البلغار، فبعد أخذ ورد طويلين وحل مشكلات مالية يطول شرحها انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة في ١٩ نيسان سنة ١٩٠٩، وفي هذه المعاهدة كل ما يضمن حقوق المسلمين واوقافهم ومؤسساتهم الدينية في مملكة البلغار ، فاستراح بال الدولة من جهة هاتين المشكلتين: قضية استقلال البلغار التام ، وقضية استلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا .

ولكن ثار تنور الخصام في وسط السلطنة ، وتعددت الأحزاب ، وبسبب إعلان الحرية اظهر كلّ ما في نفسه، وبدلاً من ان يكون هذا القانون الأساسي سبباً للانضمام وللسير على قاعدة «وان هذه امتكم امة واحدة» وليس من امتياز فيها لفريق على فريق ، كانت عاقبة هذا النظام الجديد ان كل امة من الامم الكثيرة التي تتألف منها السلطنة العثمانية اخذت تحاول الانفصال عن السلطنة نفسها بالطرق الممكنة وغير الممكنة ، وجاءت هذه الحالة عذراً للسلطان عبد الحميد الذي كان يدعي أنه انما اخّر اعلان الدستور وجمع مجلس الامة خوفاً من تفكك اجزاء السلطنة وفراراً من صدع الوحدة العثمانية، لأنه في ظل الحرية لا يمكن منع النزعات القومية التي هي كامنة في

صدور هذه الامم المختلفة التي لا يجمع بينها سوى رهبة الدولة.

ولكن جمعية الاتحاد والترقي مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة وكان اكثر زعمائها شباناً لم يتمرسوا بالأمور، ولم تنجّزهم الحادثات، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر – حتى من انفسهم – فسكروا بخمرة العزّ، واستخفّوا بمن سواهم، وظنوا انهم هم قادرون على كل شيء، والحال انهم كانوا يواجهون صعاباً ويقابلون عقاباً لا قبل لهم بها، فكانت أمامهم – وهي الطامة الكبرى – دسائس الدول الأوربية التي كل واحدة منهن كانت تحرك أهل البلاد التي تطمح اليها من أجزاء السلطنة؛ وكان هذا مرضاً مزمناً، فلا الاجانب كانوا راجعين عن اطماعهم هذه ولا الاهالي الذين تعودوا رؤية نفوذ هذه الدول في بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد الى وساوسهم، ولأجل وضع سد في وجه الاجانب كان ينبغي ان تكون الدولة اقوى وارقى وأسعد حالاً، وأغزر مالاً من جميع الدول العظام. ولم تكن هذه الشروط حاصلة في الدولة العثمانية كما لا يخفى. ثم ان جميع الأمم التي كانت تتألف منها هذه السلطنة كانت اهدافها مختلفة، فالاروام وهم جانب كبير في المملكة لا ينسون ملكهم القديم، وفي كل حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف

الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الترك منها الى آسيا، والارمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم في نفس الاناضول، والبلغار يريدون ضم مكدونية الى المملكة البلغارية الجديدة، وهذا من جهة المسيحيين.

فأما من جهة المسلمين فان الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هي الجامعة الدينية، ولولاها لكانت هذه السلطنة تفككت منذ قرون، ولكن سوء الادارة في الداخل من جهة، ودسائس الاجانب من الخارج من جهة اخرى، حملا الكثيرين من العرب والارناؤوط بنوع خاص على النزوع الى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية، وقد بدأ ذلك عند الارناؤوط قبل العرب، فحاولت الدولة تأديب الثائرين منهم فاستلزم ذلك تجريد جحافل ووقعت معارك دموية، فازداد الارناؤوط من الدولة نفوراً. واما العرب فكانت عندهم غيرة من الترك لأنهم كانوا اكثر من هؤلاء عدداً، ولم تكن لهم الامتيازات التي للترك، وكان الترك يزعمون ان العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التامة مع الاتراك، فمن البلاد العربية جانب كبير لا يقوم بالخدمة العسكرية الاجبارية، بل يكلّف الدولة سوق عساكر لادخال أهله في الطّاعة، وهذا

النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهي بل كان يزداد بضعف الدولة وقد كان يظهر في مواقع كثيرة . ولكن كان المانع الوحيد من انفجار بركان الشر بين الفريقين هو الخوف على بيضة الاسلام لا غير، الا ان الانكليز تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم مَن استجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلبوهم بطريقة الاقناع ، وأوهموا العرب انهم انما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بني العباس ، أو دولة بني أميّة مثلاً ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم ، وعلى عمارة بلادهم التي لم يحسن الترك ادارتها، ولا عمارتها. فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون الى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصة. ولا يمكن أن يقال ان هذا كان رأي الجمهرة من الأمة العربية، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون انه اذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الافرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الاجانب ، واختياراً لأهون الشرّين .

نعم لو كانوا على يقين بأن الدول الاوربية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط ايديها اليها بالغصب والتقسيم ، لكانوا يرجحون بدون شك الانفصال عن الترك ، والاستقلال بدولة

لانفسهم . ولكن عقلاء العرب كانوا لا يجهلون مطامع الدول الاجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفى عنهم تصميم اوربا على تقسيمها .

ولم يكن يشذّ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض من لا تجربة لهم، او من لا تهمه الجامعة الاسلامية في كثير ولا قليل. ومنهم من كان الانكليز يستخدمونهم في بث دعايتهم كأجَراء لا غير .

ثم ان الاتحاديين ساعدوا بسوء تصرفهم واستخفافهم باعدائهم هذه الامم غير التركية في السلطنة على انفسهم ، ودخل في الجمعية الاتحادية عناصر كثيرة مفسدة كرَّهت الرعيّة بها . وكان رجال الحكم الجديد قد اقصوا عن وظائف الحكومة اكثر الذين كانوا يشغلونها واستبدلوا بهم شباناً من حزبهم ، فآسفوا جمعاً عظيماً لهم تأثير في السلطنة ، لأنهم اصابوهم في أسباب معيشتهم ، فانكسرت خواطر وتراكمت احقاد ، وتألفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون ، وانتشرت لهم جرائد ، واعصوصب حولهم كثير من العوام .

ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بامور الدين ، ويتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع؛ مال جمهور العلماء وانصار المبادىء الاسلامية الى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية

الاتحاد والترقي ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ « درويش وحدتي » عصبة سموها «الوحدة المحمدية » ، وأخذ حزب الاحرار يمد يده الى حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة على حزب الاتحاد والترقي ، فاشتدت المعارضة في وجه الاتحاديين بينما هم مهملون للاحتياط ، واثقون بأنفسهم ، مستخفون بخصومهم . فاشتدت المناقشات في الجرائد ، وازدادت العداوة بين الأحزاب ، واذا بالناس في ٨ نيسان سنة ١٩٠٩ تسمع ان حسن فهمي بك محرر جريدة « سربستي » قد قتل غيلة على الجسر وهو راجع من بيك أوغلي الى استانبول ، وكان هذا الكاتب من اكبر اعداء الاتحاد والترقي ، فقيل ان الاتحاديين هم الذين ارسلوا من يغتاله ، وقيل ان الذين اغتالوه هم حزب الرجعيين ، وذلك لأنهم استشاروه في القضاء على الدستور والرجوع الى نظام الحكم القديم فأبى ان يسايرهم في هذه المكيدة ، فخافوا ان يفشي سرهم للحكومة فأرادوا التخلص منه فقتلوه ، فهاجت الخواطر لقتل هذا الكاتب ، وقدم ستة من مبعوثي المجلس سؤالاً لناظر الداخلية عن هذه الحادثة ، وتفاقم القلق في الاستانة ، وكان الرجعيون قد اتصلوا ببعض طوابير من الجيش ، واتهم السلطان عبد الحميد بأن له يداً في الدسيسة رأساً أو بواسطة انصاره القدماء ، فما شعر الاهالي الا والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا

وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة ، وعزل احمد رضا بك رئيس مجلس الأمة ، ويطلبون تسليم علي رضا باشا ناظر الحربية ، وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي ليقتلوهم ، وكان بعض المشايخ علّموا العسكر ان ينادوا باعادة الشريعة والغاء القانون الاساسي حتى يملكوا بذلك قلوب العامة ، وفي ذلك الوقت هجموا على نادي الاتحاد والترقي ، وعلى ادارة جريدة «طنين» ، وعلى النادي العسكري، وعلى نادي النساء، ونهبوها وجعلوا عاليها سافلها ، ثم انقض الجنود على ضباطهم فقتلوا منهم ثلاثمائة ، وفر من الضباط عدد كبير من الاستانة ، وتخبأ آخرون فيها . ثم هجم الجند على مجلس المبعوثين ليقتلوا منهم الاتحاديين المعروفين بمكانتهم في الجمعية ، ولكن كان المبعوثون الاتحاديون قد علموا بالثورة وما يضمره الرجعيون المتسترون باسم الشريعة من نية قتلهم ، فلم يحضروا الى المجلس . وحضر الأمير محمد ارسلان رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوث اللاذقية ، وقيل له في ذلك اليوم ان ذهابه الى المجلس خطر على حياته لأنه كان من الاتحاديين المعروفين ، فأبى الا ان يذهب ليقوم بالواجب ، وكان بلغه ان في نية الثوار إحداث مذبحة في الاستانة تحمل الأجانب على التدخل لأجل حماية رعاياهم فتسقط بذلك حكومة الاتحاد والترقي ، فذهب ابن عمنا الى المجلس ليحمل المبعوثين

على مراجعة السلطان شخصياً ليبذل كلمته ونفوذه لأجل تسكين الثورة التي قد تجر وبالاً عظيماً على السلطنة ، فلما ذهب رحمه الله الى المجلس لم يجد من نيف ومائتي مبعوث الا ثلاثين أو اربعين مبعوثاً فقط . فتكلم معهم في الموضوع وتقرر بينهم ارسال وفد الى قصر يلدز ليعرض الخطب على السلطان ، ويلتمس امره الجازم للعسكر وللشعب بالسكون ، فانتخب المجلس أحد عشر مبعوثاً منهم محمد ارسلان ليقوموا بهذه المهمة . فلما خرجوا وركبوا العربات عرف محركو هذه الثورة مقصدهم فردوهم من حيث اتوا. وبينما هم على باب المجلس اوعز بعض المحركين لهذه الثورة الى الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمد ارسلان - وهم لا يعرفونه - فوقع شهيداً. ثم قتلوا أيضاً ناظم باشا ناظر العدلية ، وكان مرادهم ان يفتكوا أيضاً بسائر اعضاء المجلس الذين لبثوا ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من تخبأ في أي مكان يتوارى به عن الأعين ، ولكن العسكر بعد ان فتك بناظر العدلية وبمبعوث اللاذقية سمعوا انه سيأتي عسكر آخر بأمر السلطان فيقتص منهم ، فوقع الرعب في قلوبهم وأمسكوا عن قتل سائر المبعوثين وصاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً .

وأما حسين حلمي باشا والوزراء رفاقه فقد تخبأوا حيث لا يعلم بهم احد ، وانسل محمود مختار باشا على باخرة انكليزية فذهب العسكر الى بيته ليقتلوه فلم يجدوه . فأمر السلطان بتأليف وزارة جديدة تحت رئاسة توفيق باشا الذي كان سفيراً للدولة في لندرة ، وأدخل فيها أدهم باشا قائد الجيش العثماني الذي قهر اليونان ، وذهني باشا ، ورفعت باشا الذي كان ناظراً للخارجية في الوزارة السابقة ، فأبقوه في الوزارة الجديدة كما كان ، وأبقوا أيضاً ضياء الدين افندي شيخ الاسلام ، وأبقوا نورادونغيا افندي الأرمني ناظر الأشغال النافعة ، وأبقوا خليل حماده باشا ناظر الأوقاف ، وتعيّن لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمي باشا، وتعين عادل بك ناظراً للداخلية ، والقائد ناظم باشا قائداً للفيلق الخامس مكان محمود مختار باشا، وقد كان وقوع هذه الثورة في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩.
وفي اليوم التالي لم ينعقد المجلس، ولكن لما تم تشكيل الوزارة انعقد بحضور ١٩١ مبعوثاً واصدر المجلس منشوراً يحاول فيه تلطيف الحادثة ، ويحث الرعية على السكون . ونقلت جثة الأمير محمد أرسلان باحتفال عظيم الى بيروت حيث كان له مأتم لم يسبق نظيره ، وبكى الجميع شبابه لأنه كان في الرابعة والثلاثين من العمر ، وبكوا مزاياه العالية . وحزن عليه أبوه

الأمير مصطفى أرسلان حزناً أثر في صحته فلم يعش بعد ذلك طويلاً .

ولما وصل الخبر الى سلانيك، وهي مركز الاتحاد والترقي، هاج العسكر ولا سيما الضباط الذين علموا بقتل رفاقهم، فلم يبطئوا ان زحفوا الى الاستانة . فاجتمع الفيلق الثالث – اي فيلق سلانيك – والفيلق الثاني – اي فيلق ادرنة – وساروا الى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا، فوقع الرعب في الاستانة وخيف ان العساكر الآتية من ادرنة وسلانيك تنتقم من العساكر والأهالي الذين قاموا بالثورة الرجعية، فأرسل الصدر الاعظم الى محمود شوكت باشا يقول له : ان السكون تام في الاستانة وانه لا خوف من حرب . وكان توفيق باشا قد نصح للسلطان بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية .

ولما اجتمعت الجيوش في « سان ستفانو » وذلك في ٢١ نيسان اقبل عليها النواب والشيوخ وانعقد مجلس الأمة تحت رئاسة احمد رضا بك، ونشروا منشوراً يجعل الأمر والنهي والاقتصاص من الثائرين في يد محمود شوكت باشا قائد الجيش المسمّى بجيش الحركة، وكان العساكر البحرية قد اشتركوا في الثورة من قبل، ولكنهم لما رأوا القوة أقبلت اسرعوا الى الخضوع . وبالاجمال لم يكن في نية توفيق باشا ولا أدهم باشا ولا أحد

من الوزارة الجديـدة مقاومـة الفيلقين القادمين من الروملي، ولكن بعض العساكر الذين كانوا في ثكنة «طاشقشلة» والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء، اطلقوا النـار عـلى جيوش الروملي فوقعت معركة انتهت بفوز جيوش الروملي، وكذلك وقعت مناوشـات خفيفة في ثُـكـن أخرى وانتهت بفوز قوة محمود شوكت باشا، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف مـن الجيش المخلص للسلطان، الا انهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا. وفي ٢٦ نيسان تقرر في مجلس الامة خلع السلطان. وصدرت الفتوى من مشيخة الاسلام بأنه اذا كان زيد — الذي هو امير المؤمنين — يحذف مسائل مهمّة من كتب الشرع وقد يمنع تداول هذه الكتب أحياناً، وكان يخالف الشرع في استعمال بيت مـال المسلمين ويقتـل وينفي ويحبس بمجرد هـواه، ويحنث بيمينه التي اقسمها، ويُحـدث الفوضى في المملكة، أفلا يجوز تخليص الأمة من ضرره؟ أفلا يكون من مصلحة الامة خلعه الخ؟ الجواب: نعم.

(تاريخ ابن خلدون)

الشهيد انور باشا

انه لما أخلى الجيش البلغاري جبهة الحرب اواخر صيف عام ١٩١٨ طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالغة خمسمائة ألف مقاتل ، سقط في يد دولة اوستريا – هنكاريا فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، فخافت ان يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا ناظر الحربية يحشد من بقي من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها أكثر العسكر الذي كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو وبلاد اذربيجان ، وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى أن يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل على القلوب ، واعتقاد معظم الأتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون ، فتبقى كل أمة مالكة للبلاد التي أكثر سكانها هم منها ، كل ذلك أحبط مساعي أنور باشا في الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأي العام حتى من الاتحاديين أنفسهم الى

طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير أحمد عزت باشا الأرناؤوطي ومعه رؤوف بك ناظراً للبحرية ، وفتحي بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالي الهدنة .

وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغباً في عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فأنفذت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز ، وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً في اول الامر ، لكنها صارت خفيفة جداً فيما بعد ، عندما دخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو أقام الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به في اثناء الحرب وما تعهدوا به في نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً . وكان من جملة ما قرره الاتحاديون في اثناء الهدنة برأي رئيسهم طلعت باشا ، الغاء فرقة الاتحاد والترقي وتأليف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جملة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسي ، بدون ابقاء الاسم الذي كان من شأنه تنفير الدول الغالبة ، وتجفيل الرأي العام في ذلك الوقت .

وكان مرادهم اعتزال الحكومة موقتاً ، الى ان تكون انتهت تلك الأزمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب أجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلائهم على الطرق برّاً وبحراً ، جاء من انبأهم بأن السلطان وحيد الدين الذي كان من الأصل ناقماً عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز فيلقى القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلبون ، بحجة قتل الارمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً في بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقي ، والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة ، وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت ، وأنور ، وجمال ، وعزمي والي بيروت الأسبق ، وبدري مدير البوليس الاسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكري ناموس جمعية الاتحاد والترقي ، وكان هذا صديقاً حميماً لطلعت ألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه في نفسه لا يميل الى السفر وانما أراد ان يرافقه حباً ووفاء ، فقال له : ان كنت لا ترغب في الباطن في هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلي .

فبقي مدحت شكري بك في الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة المانية ، جاعلين وجهتهم القريم . ووقع

ذلك في أوائل تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، وبلغني من احدهم انهم في الطريق تذاكروا في ما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التي حاقت بهم ، وبالأمة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لا يشكّون في الاهوال التي ستبطش بالاتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التي دارت على ألمانية وحلفائها . فذهب أنور الى أنه يجب ان ينضموا الى البلاشفة ، ويثيروا تركستان ، والقوقاس ، ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتي الله بالفرج او يموتوا . فخالفه طلعت في هذا الرأي وقال : نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققنا غضب الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق أمامنا هو ان نذهب الى اوربا ، ونقبع في زوايا العزلة ، ولا نأتي بأدنى حركة ولا نطمع في شيء ، بل ننظر الى ما يأتي به الدهر ، فإن لاحت لنا فرصة بعد مرور الايام وكر العشي اهتبلناها ، ولكننا في الوقت الحاضر لا يليق بنا الا الانزواء والاعتزال ، وترك النضال والنزال ، فقد أردنا أن ننقذ أمتنا ونرقي وطننا ، فلم يسعفنا القدر ، فلنترك هذا الأمر لغيرنا . ويظهر ان الباقين أجمعوا على رأي طلعت ، وما زالوا يدوكون في ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهيأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانية ، فوصلوا

الى محطة كان لا بدّ لهم ان يبيتوا فيها . فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم ، وعلموا انه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق ، مصمماً على ما كان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة . وكانت وجهة أنور القوقاس ، حيث كان أخوه نوري ومعه طائفة صالحة من الجند. وكان يؤمل اثارة المسلمين الذين في اذربيجان وفي الطاغستان . وقد قال لي عزمي بك والي بيروت : لو كاشفني أنور بما في نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته . ولكننا أصبحنا فوجدناه قد مضى. فأما الستة الباقون فجاؤوا الى المانية .

وأما انور فبعد ان سار مسافة في البر وصل الى مرسى من مراسي القريم ، ولما لم تكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقل قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاس ومعه خدمه . ففي أثناء الطريق ثار البحر وكاد يقلد عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك أن يقذفوا في اليمّ جميع الحقائب التي كانت معهم ، ورجعوا أدراجهم الى ساحل القريم . فنزل أنور ملتاث المزاج مما أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقي متخبئاً في تلك البلاد الى ان أبلّ من ذات الرئة التي حصلت له، فجاء اولاً الى المانية لم يعلم به أحد إلا اثنان او ثلاثة ، بل عمس خبره حتى عن رفاقه : طلعت ، وجمال ، وعزمي الخ .

وكان أنور كتّامة لا يوجد أقدر منه على اخفاء ما في نفسه، وكتم حركته، وذلك بخلاف طلعت، الذي وان كان ادهى من أنور، واعلى كعباً منه في السياسة، فقد كان فاووهة يبيح كل ما في نفسه. وبقي أنور متخبئاً تارةً ببرلين، وطوراً بإحدى المزارع في أرباضها، طلع سنة، والناس لا يعلمون من أمره شيئاً وثيقاً، والجرائد الانكليزية تكتب انه ظهر في القوقاس، وأحياناً انه في التركستان، وآونة انه في كردستان، وغير ذلك، وهو في الحقيقة في المانية لم يبرحها بعد، الى ان جاء «رادك» الزعيم البولشفيكي المشهور الى برلين، فعرف به أنور وطلعت وتلاقيا معه، وأجمعا على الحركة مع البولشفيكي. ولما كانت الطرق يومئذ بين المانية وروسية مسدودة، استصحب أنور الدكتور بهاء الدين شاكر، واستقلا طيارة قاصدين روسية، فقبل ان وصل بهما ربان الطيارة الى روسية ضلّ الحدود ونزل بهما الى الارض، ظناً بأنه نازل بأرض روسية، فاذا بهم نزلوا بأرض «لتونيا»، وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار، فقبضت الحكومة المحلية عليهم، ووقفتهم، فادعى بهاء الدين شاكر انه طبيب ذاهب الى روسية من قبل الهلال الاحمر العثماني لمعالجة أسرى الاتراك، وقال أنور انه ممرض من مستخدمي الهلال الأحمر، فعرّف أولو الأمر في لتونيا

عنهما المؤتمر الذي كان منعقداً بباريس ، فورد الجواب من المسيو كلمنصو رئيس المؤتمر بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريس، فأخذوا الصور والاجوبة التي جاوباها واعتقلوهما منتظرين ورود الجواب من كلمنصو . وفي اثناء ذلك كان أنور بعث الى الالمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الالمانية لا يزال محتلاً بلاد البلطيك، فأجابوه بأنهم يرسلون اليه طيارة يمكنه ان يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان ، وكان أنور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطي مسلح .

فلما كان اليوم المعين خرجا على عادتهما للنزهة ، وتوجها الى المكان الذي ستأتي اليه الطيارة بحسب تعريف الالمان لهما سراً ، فأبطأت الطيارة في الوصول حتى كادا يقطعان الامل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قد ظهرت في الجو ثم اسفّت ولمست الارض فاقبلا عليها هما والشرطي الذي معهما كأنهما ينظران ما خطبها ، ولما قربا منها وجدا فيها جندياً معه بندقية، ثم أخذا يتأملان في ادواتها ويتخللان داخلها والشرطي لا يشك في كونهما محبين للاستطلاع ، الى ان استقلا مقعدها وبدأت تنطاد ، فعرف الشرطي انهما قد فرا وان الامر مدبر ، ففي الحال صوب نحوه أنور البندقية منذراً اياه بالرمي ان أتى

بحركة ، فأبلس الشرطي أولاً ، ثم اطلق عليهم فيما بعد بندقيته ، ولكن الطيارة كانت قد علت في الهواء أمداً بعيداً . وبهذه الكيفية نجا أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطيارة الى المانية ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريس ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما أنور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لا يتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع ان الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبر قبل ان تحقق من هما .

ثم ركب أنور طيارة ثانية قاصداً موسكو ، ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض في الجو ، وكادا يهلكان فأسفّا الى الارض . ثم استقل طيارة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وأنزله البولشفيك في قصر قبالة « الكرملين » ، لا اظن يوجد مثله في اوربا فخامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يداً واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترا ، ثم جاء الى موسكو جمال وبدري فدخلا فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الألب (التدبير على العدو من حيث لا يعلم) على انكلترا .

وفي هاتيك الايام جاءت عائلة أنور من الاستانة الى برلين ، فجاء هو من موسكو الى برلين وشاهد حليلته التي هي ابنة أخي السلطان ، ولم يلبث ان عاد الى موسكو ، ولكنه هذه المرة

ذهب في البر من طريق « ريفال » عاصمة استونيا . وكان معه رجل روسي شيوعي فقبض عليهما في ريفال وطلس بهما في السجن ، تحت شبهة انهما من دعاة البولشفيك . وادعى أنور انه من مأموري الهلال الاحمر التركي فلم يثقوا في قوله ، واخذوا رفيقه المسكوبي يضربونه ضرباً أليماً حتى يقرّ من هو هذا التركي الذي معه ، فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقرّ بشيء ، ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيماء أنور وشمائله وحسن صورته ، شيئاً ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول ، ولذلك كانت تلح عليه في الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصراً على الكتمان ، الى ان خطر لهم ان يضربوه يوماً كما ضربوا الروسي رفيقه ، وبينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التي كانت هناك تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم : مثل هذا لا يجوز ضربه . فخلوا بعد ذلك سبيله . وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فأقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بيني وبينه حينما كنت في سويسرة . ثم ذهب ايضاً الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ، وكانت

سفرته هذه في أوائل تموز سنة ١٩٢٠ ، ثم عـاد الى برلين اول مرة ، ثم ذهب وعـاد ثاني مرة وذلك في اواخر حزيران سنة ١٩٢١ ، وهذا آخر عهده ، رحمه الله ، بأسرته .

وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة أشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف في آخر الامر مع البولشفيك وأثار التركستـان عليهم ، واستشهد في هـذه الحرب في اوائل آب سنة ١٩٢٢ . وتحرير الخـبر انه كان بين أنور ومصطفى كمال وخشة من قبل ، فلمـا اسس مصطفى كمال حكومة انقـرة كان أنور بـدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لهـا فروعاً في الأناضول ، فعـارض مصطفى كمال في انتشار هذه الفـروع بحجة انهـا قد تؤدي الى الخلاف والشقاق حال كون الدفاع الوطني يقضي بتوحيد الكلمة. فنقم أنور عليه هذه المعارضة وعدها استبداداً ونفاسة ، وازداد الجو بينهما سفوراً بحيث انه لمـا جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقاً الى طرابزون بادر مصطفى كمال بإخراجه منها ، وكذلك عندما ورد عزمي بـك والي بيروت الاسبق مدينـة ارضروم ارسل اليه بأن يبرحها حـالاً ، ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لأنور ، فكان أنور يحتقد عليه هذه الامور كلها ، وكنا ننصحه ان لا يوسع هذا

الخلاف ولا يدع للقالة سبيلاً. واحدى المرار كنا عنده مجتمعين بمنزله في غرونفالد بظاهر برلين، فبينت له وجوب الوئام مع مصطفى كمال ما دامت هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة، وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه في العالم الاسلامي جميعاً، وأيد كلامي هذا الدكتور ناظم، فلم يجاوب أنور لا سلباً ولا ايجاباً، وكان من اقدر خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق، ولم يكن أنور ممن يستطيره الغضب، ولا ممن ينطلق لسانه بطعن ولا لعن ولا قذيعة، لم يعهد أحد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاتماً، وكان عجيباً في هذا الامر لا يباريه أحد فيه، واذا اراد ان يتشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى الاشارات، بدون سلاطة لسان، فكان قصارى قوله في مصطفى كمال ان الادارة في الاناضول غير سائرة على مبدإ العدل ولا المساواة، وان الامة لم تتحمل استبداد السلطان عبد الحميد وهو ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره. وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هذا القبيل ما يثير حفيظته، فكنت ابين له دائماً ما يلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة، ولو كان على حق في بعض ما يشكو منه.

ولما فارقته في موسكو في أوائل تموز سنة ١٩٢١ لم انسَ، وانا على ثنية الوداع الاخير، ان احذره من التهور

في الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة في ذلك الوقت الذي يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك . ويظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى حكومة موسكو يشكو من حركات أنور ، ويلتمس منها ان لا تمد انور بشيء مما كانت وعدته به من مال وسلاح . فأمسك السوفييت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك عذراً لهم بعدم الامداد ، وانا ما صدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضبع أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالرويغة ويمنونه الاماني ليبقى في يدهم ، وليهددوا به انكلترة ، وينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سريانها الى مسلمي روسية الكثيري العدد ، لاسيما ان أنور اعلن الحكومة الحمراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعة بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الحلفاء لا غير . والحال ان البولشفيكيين لا يركنون الا الى من كان شيوعياً مثلهم قولاً وفعلاً . وكنت نبهته مراراً الى خطر اقامته بموسكو قائلاً له : ان الحمر لا يجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسلامية اليوم ، وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانكليز لها او اكثر ، لأن في روسية لا اقل من ٣٥ مليون مسلم جميعهم متصلة

بلادهم بعضها ببعض وبسائر بلاد الاسلام ، وهم يذكرون ماضي ملكهم وسابق عزهم، فلا شك ان الروس يحسبون ألف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع أخص. وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الاسيوي استعدادهم لمناصرته وتحفزهم لمعاضدته في موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الاسلام وهو على قواعده الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسي ما يرى الانكليز على الهند. فكان أنور يجاوبني: انني انا تعهدت لهم بأن لا آتي بحركة اسلامية في ارضهم واقنعتهم بأن عندنا شغلاً آخر مع غيرهم، وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانكليز، ولقد علموا انه لما ثار بهم اخي نوري في القوقاس وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم ، واعلنت عدم رضاي عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فكنت أقول له : إلا ان ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأي عندي ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل ان يقع الخلاف بينك وبينهم ، فاما ان تقيم هذه المدة بألمانية ، واما ان تذهب الى بلد مثل افغانستان حيث يستقبلك اميرها برّاً وترحيباً.

وكان الامير امان الله خان قد ارسل الى أنور بأعلى رتبة في مملكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعني هو عليه قد أوسعه

به لطفاً وتشريفاً . فلم اقدر على اقناعه بترك موسكو ووقع الذي حذرناه . اذ لما يئس أنور من حمل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقاً خُلـَّباً ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا بـه الانكليز ويجعلوه رقيباً لمصطفى كمال حتى اذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور، بدأ انور يضمر العداوة للحمر، وفتح اذنه لأقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما في أنفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لأملاكهم واموالهم وسعيهم في بلشفة المسلمين واهدارهم دماء الألوف، وعشرات الألوف منهم، في اذربيجان، وقازان ، وتركستان ، وطاغستان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوها بإعطاء هذه البلاد الاسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة روسية القومية، وبطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين، الى غير ذلك مما وقر في نفس أنور ، وحداه على تغيير سياسته، والرجوع الى سياسة أخيه نوري ، الذي كان يعذله على ممالأته للبولشفيك . فصار أنور يترقب فرصة للتملص من موسكو ، وينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه بـه حبساً . الى ان زحف اليونانيون نحو انقرة وصار الاتراك يتقهقرون الى

الوراء ، وخيف من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلاً : اذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، او سقطت انقرة ، فلا يسعني الا تجنيد من يمكنني تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين. فساعده البولشفيك بالسفر وانخدعوا بكلامه، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقباً الاخبار عن الاناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك في معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الوراء، علم أن لم يبق محل لدخوله الاناضول ، فولى وجهه شطر تركستان، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض ببزلاء، ويعالج مرتقى عقبة كأداء .

اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمي بك والي طرابزون الاسبق يوصيه بتعهد أمور عائلته ببرلين ويقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا ، وهذا دليل على انه كان موطناً نفسه على الموت. وكان ذهابه من باطوم في أواخر آب سنة ١٩٢١ متنكراً ومعه رفيق واحد يدّرعان الظلماء ويلتحفان السماء . واما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد ايام ، وكان هو أجمع في نفسه على الانفصال عنهم ، وبرئت قائبةٌ من قوب . ولست أعلم ماذا جرى معه في تركستان تفصيلاً ، ولا اي طريق سلك الى هناك ، وقصارى

ما علمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميري ، وبطش بدعاة البلشفة وأولئك الذين يقال لهم « مجددي » اي الحزب الجديد الذين يمشون بين ايدي الحمر ، وأنه استجمعت له هناك جميع الامور واخذ الامر كله بيده ، وانضم اليه السواد الاعظم من الأمة ، وارسل في تلك الاثناء صورته بالزي البخاري الى اهله وشاهدتها عندهم ببرلين ، وكان في نيته ان يستقدم السلطانة امرأته عن طريق الهند وافغانستان .

ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له أمور مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التي كانت فتنتها لم تخمد من اول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة أكثر التركستان ، وهاجم انور عساكر البلاشفة في مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع وأعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الاوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها اولياؤه وأحبابه ، لا بل المسلمون جميعاً ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكنني كنت متوجساً عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقفه وقلق وضينه .

وفي هاتيك الايام شاع ان البولشفيك دعوه الى الصلح ،

فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط . وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى لعلمي بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عندما كنا في جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية قابلت تشيتشرين الذي كان رئيس الوفد الروسي في المؤتمر، وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، وبعد ان أبدينا وأعدنا في القضية العربية سألته عن خطب أنور ، ولم أكتم عنه انه لم يكن من الحكمة ان يفلتوا مثل أنور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضاؤه بشيء من الاشياء . فأخذ يشرح لي عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأقعده من أحوال تركستان ، وكيف ألقى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سبباً في هذه المصائب التي سالت فيها الدماء الخ . فتكلمت معه فيما لو كان ممكناً تأليف ذات البين ، فأجابني انهم هم أحب شيء اليهم الصلح . فقلت له : ولكن مثل أنور لا يرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف . قال : وماذا يريده أنور ؟ قلت : والله لا اعلم ماذا يريده ، وليس بيني وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئاً من احواله الراهنة اليوم ، وانما أقرأ اخباره في الجرائد . فكلامي هو رأي من عندي اقدمه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا

غير، وهو: انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلاً وخارجاً، فتتركون أنور يصلح أمور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب، ويتم الاتفاق بينكم وبينه على ان لا يتعرض للتركستان الروسي، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق. قال تشيتشرين: وماذا يكون منصبه في بخارى أأميراً أم وزيراً ؟ قلت له : هذا عائد لرأي أهل بخارى ، فان لم يكن أميراً ، يكون رئيساً للوزارة وقائداً عاماً ، او يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية . قال : لا لا ، هذا خطر عظيم . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها في هذه القضية .

ولكنني سمعت من أحد أصحابي الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون في دعوة أنور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا في هذا الأمر كانوا يقولون للحمر في موسكو : مهما بذلتم في مرضاة انور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ان شاء سكّنها، وان شاء هيّجها ، وهي قائمة به وحده . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحماقة ، لانه جعل البولشفيك يعتقدون ان الاهالي كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء، وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم

للقبض على ذلك الشخص الذي تسبب لهم، بمجرد ارادته، بكل هاتيك الخسائر وأخرج أكثر تلك الأقاليم من طاعتهم. ولست على ثقة من خبر القوة التي ساقوها على أنور، ولكن الناس الذين جاؤوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون في الكلام على الجحافل الجرارة التي بثها الروس في التركستان لاخماد نار الثورة، ولخضد شوكة أنور. وما مضت مدة حتى روت الجرائد ان أنور تقهقر الى الوراء أمام القوة الجسيمة التي لم يكن له قِبَل بها. ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه وبعث يقول له: انا محتاج الى مثلك لأجل رئاسة جيشي. فأقدم عليّ فلن تجد عندي أعزّ ولا أغلى منك. ولكن أنور كان مغرماً بالحرب، وكما قال علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب في سورية، في اثناء الحرب العامة، وذلك في كتاب له على حملة ترعة السويس، عربه الكاتب الأديب نجيب أفندي الارمنازي: ان حال السلم عند أنور عدد منفي، وقصارى حياة المرء عند أنور ان يقوم في ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب، ويموت فيها شريفاً. ولقد أصاب علي فؤاد في قوله هذا كما أصاب في أكثر ما اورده بكتابه. فإن أنور كان حلس قتال لا يمله، ولكنه كان من أقدر الناس على الادارة والتنظيم، وكل من شهد

ترتيبه في الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد في العمل ، يعلم انه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوعه ، في التدبير ، والترتيب ، وأساليب العمارة ، فكان في هذه الساحة فذاً . الا انه لم يكن سياسياً كبيراً مع فرط ذكائه ، وأتذكر انه رغب الي ان اذهب الى المانية لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧، فلما ودعته قال لي : لا يكفيني ان تخبرني بما هو كائن هناك ، بل أعطني على ما تشاهده رأيك الخاص . فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه في السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لا يوجد آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفي أوائل آب من عام ١٩٢٢ كان أنور ، كما سبق القول ، في بلدة يقال لها «بالجوان» شرقي بخارى ، وكان أكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقي في شرذمة من اعوانه ، فهاجمته خيالة الروس في عسكر مجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل حتى قتل رحمه الله . وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ، ومن رآه يظن انه في نحو الثلاثين لوضاءة جماله ، ورونق شبابه . وانتشر الخبر في الدنيا كلها، ولولوع الشرقيين بأنور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا ان يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما انه ورد من القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا

عام اول في رومة ، فقلت لأول وهلة : هذا الذي كنت أستوقعه له . وعزمي بك والي بيروت كان قال لي : أنور هذه المرة اما ان يعلو كثيراً او يموت . على ان موته شهيداً في سبيل تحرير قومه هو أشرف ميتة ، وأنوه منية . ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً . ولكنني كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت أخاه كامل بك وأهله ، فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغاني ، وهم لا يشكون انه آت بمكتوب منه . فسألتهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بني على كتاب جاء من نفس أنور بعد تلك الاشاعة ، فعلمت انه لم يرد منه بعد الاشاعة شيء . فعند ذلك هجس في فكري انه لو كان حيّاً لأسرع بالكتابة الى اهله تكذيباً للاشاعة ، اذ لا بد من ان يكون بلغه ما قيل . ثم كلفوني ان استقصي لهم الخبر من سفير أفغانستان الذي كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فأحفوني على سؤاله من قبلي انا ، فلما سألته بصورة خاصة قال لي ان الخبر صحيح ولكنه لا يريد ان يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لأنور . وهو الذي أخبرني عما أصاب الامير أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح الى كابول فأبى . فلما عادوا يسألونني عما سمعت من سفير الافغان أجبتهم ان السفير لا يقول شيئاً ، ولكنني أنا شخصياً في قلق من سكوته

المطلق ، وأرى انه ما دام الباشا لا يكتب كالعادة بخطه الى السلطانة فيخشى من ان يكون هناك قضاء واقع . وما زالوا يعللون أنفسهم بالآمال ويسمعون لأقوال من يروي لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور حي ، وعن القادم الفلاني من تلك الديار انه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وان الذي وجدت جثته وكان ظن اولاً انه أنور ، ظهر بالتالي انه غير أنور ، الى غير ذلك من الاخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » ، الى ان قدم ضابط من القوقاس لقيني في لوزان في هذا الشتاء ، وأخبرني بالقصة التي كنت عرفتها من سفارة الافغان ببرلين قبل مجيء هذا الضابط بأشهر .

ومع هذا فغرام الشرقيين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أمير الآلاي علي رضا بك نائب أنور بياناً في الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لتحرير تركستان ، فهو اليوم ليس في افغانستان ، ولا في ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذي جاهد لمرضاته بماله ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى ان نرجع قريباً الى أنقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه ، بل ان يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة . » (حاضر العالم الاسلامي)

ميناء جدة

...ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان الى الآن منقوشين في لوح خاطري، احدهما رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها : انه وان كانت هـذه السواحـل قفاراً لا تستحق ان ترفأ اليها البوارج ولا السفن فان وراءها من المعنوي أمراً عظيماً ، ومقصداً كريماً ، هـذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله ، ولقد قيل لي في جدة ماذا رأيت ؟ فمن العادة ان تجتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة ، وقد يبلغ عدد الراسي فيها الى خمسين باخرة حتى يعود البحر هناك غاباً أشباً ، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك .

وأما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء ، فلقد طفت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر البلطيك وبحر المانش والاوقيانوس الاطلنتيك ، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان . كنت كيفما نظرت يمنة او يسرة اشاهد خطوطاً طويلة عريضة في

البحر أشبه بقوس قزح في تعدد الألوان ، وتألق الأنوار ، من احمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر الخ . ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى ان هذه الخطوط مستقيمة وان قسيّ قزح مقوسة ، وان هذه في السماء وهاتيك في الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذيول الطواويس ، لا فرق بينهما الا في كون هذه الذيول المنسحبة على وجه البحر عظيمة جداً تمتد مئات من الأمتار وبعرض عشرات منها ، ولكن في تعدد الالوان وموازاة بعضها لبعض وشدة تألقها الآخذ بالأبصار لا تجد بينها بوناً . فكأن في كل جهة من بحر جدة مسرح طواويس سابحة في اللجج الخضر وظهورها الى سطح الماء ، الواحد منها بقدر الف طاووس مما نعهد .

قضيت العجب من هذا المنظر وقلت ان مثل هذا الميناء لا تمله النواظر ، ولا تشبهه المناظر ، مهما كانت نواضر . ثم سألت ربان الباخرة – وهي من البواخر الهندية ربانها انكليزي – عما اذا كان رأى هذا المنظر في بحر آخر وقلت له : اني جلت كثيراً في الدنيا ، ورأيت ابحراً وبحيرات وأنهاراً لا تحصى ، ولم اعهد مسرح لمحة على سطح ماء يحاكي في البهاء هذا الميناء ، فما قولك انت ؟ قال لي : مهما يكن من سيرك في الأرض ومعرفتك للبحار فلا تعرف منها

جزءاً مما اعرف، وانا اقول لك اني لا اعهد هذه المناظر البديعة الا لهذا الميناء وحده. فسألته عن السبب في تشكل هذه الالوان فقال : ان قعر البحر هنا ليس ببعيد وان فيه اضلاعاً مكسوة نباتاً بحرياً متنوع الالوان والاشكال ، وان هذه الاضلاع ناتئة قريبة من سطح الماء فتنعكس مناظرها الى الخارج ، ويزيدها نور الشمس رونقاً واشعاعاً .

وقيل لي فيما بعد ان ملوحة البحر الأحمر زائدة، وان هذه الملوحة هي السبب في تكوُّن هذه الشعاب التي تكثر في هـذا البحر وتجعل مسالكه خطرة ، وان هذه الشعاب تنمو وتعـلو حتى تقارب سطح الماء ، ومنها ما يبرز عن سطح الماء فيكون جزيرة . وان هذه الشعـاب متكونة مـن اعشاب وحيوانات بحرية من طبقة الاسفنج ، وهي ذوات الوان شتى كلها ناصع ، ومنها ما هو احمر ساطع ، ومنها ما هو اخضر ناضر ، ومنها ما هو اصفر فاقع ، ومنها ما هو دون ذلك ، وقد يقتلع الملاّحة والغواصة منها أشجاراً تسمى بشجر المرجـان ، وهي في غـاية الجمال ، ومن ابهى ما يوضع في أبهاء القصور للزينة .

فهـذه الشعاب هي التي تنعكس الوانها عـلى سطح المـاء فتكون اشبه بذيول الطواويس او بقسيّ السحـاب ، وهي في الوقت نفسه الأخطار الدائمة عـلى السفن ، والغيـلان المتحفزة

لابتلاعها . فسبحان الذي اودع فيها الحسن ولكنه انزل فيها البأس ، وجعلها غائلة للمراكب ! ولقد صدق المثل : ان من الحسن لشقوة .

(الارتسامات اللطاف)

الحجاج وحر الحجاز

فالحج الشريف يصادف على مدة ستة أشهر فصل القيظ الذي فيه حر شديد وحر أشد هو حر السرطان والأسد والسنبلة . وهذا لا يطيقه الا أهل خط الاستواء والتكارنة ومن هم في ضربهم . فاما حجاج مصر والشام والمغرب والاناضول والبلقان وتركستان وشمالي فارس وافغانستان وشمالي الهند فانهم يطوفون من هذا الحر عذاباً واصباً . وقد شاهدت علماء من العراق فسألتهم عن نسبة حر العراق الى حر تهائم الحجاز فقالوا ان حر الحجاز اشد . وأكثر من يموت من الحجاج في المواسم المصادفة لفصل القيظ انما هم من حجاج الشمال ، وذلك بضربة الشمس . وأكثر ما تصيبهم هذه الضربة في عرفات حيث يجب ان يكونوا مكشوفي الرؤوس. فليتأمل المتأمل في قضية الحسر عن الرأس في عين الشمس عندما تكون درجة الحرارة في ظل الخيمة ٤٨ بميزان سنتغراد . ومع انه يجوز للحاج اتقاء للضرر ان يستظل بمظلة عالية فوق رأسه فتجد اكثر الحجاج يتورعون عن ذلك ابتغاء زيادة الاجر والثواب وعملاً بأن الاجر على

قدر المشقة . وهم ينسون ان الله نهى عن القاء الانسان بيده الى التهلكة ، وان احتمال المشقة ان كان فيه أجر وثواب ، فالتهور في الهلكة ليس فيه اجر ولا ثواب ، بل يكاد يكون انتحاراً والانتحار ممنوع حتى في العبادة . ان الانسان لا يجوز له ان يهدم بنية الله تعالى ابتغاء مرضاة الله تعالى الذي لا يرضى بذلك منه . وانه ليس في الشرع الاسلامي ما يجيز للمسلم ان يضر بجسمه ضرراً بيناً متحققاً ولو في سبيل التعبد. فعدم الاستظلال بمظلة عندما تكون درجة الحرارة كما وصفنا نراه مخالفاً لروح الشرع ، ومن باب طلب الزيادة والوقوع في النقصان .

ان الهنود الهندوس الذين يرون في فصال النفس عن هذه الحياة الدنيا رجعى منها الى الروح الكلية التي الاتحاد بها اعلى درجات السعادة عندهم يقصدون الهلاك ويستعذبون العذاب ، ويرون في المحن سبكاً للنفوس وتصفية لهـا كما يصفى الذهب الابريز بالنار . فتجدهم في عبادتهم ينزعون الى الموت نزوعاً . ولكن الشرع الاسلامي خالٍ من هذه العقائد وهو شرع دنيا واخرى ، وكما انه نهى عن الافراط في حب الدنيا نهى عن الافراط في كرهها . وان كان الاسلام انتدب المؤمن الى عزائم هي قوام الرجولية والانسانية فقد أوجب عليه القيام بها ما لم يتحقق منها عليه ضرر او خطر . وان الموطن الوحيد الذي

حبب فيه القرآن احتقار الموت هو موطن الجهاد حيث يموت البعض لحياة الكل، ولان الأمة التي يعز على افرادها ان يموتوا لا يمكنها ان تحيا . فلهذا قال تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون.» فالشهادة انما وعد الله بها الذين يموتون في الذبّ عن بيضة الاسلام ، وفي صد العدو عن أن يستذلهم ويستعبدهم، ولكنه لم يَعِدها الذين يموتون من ضربة الشمس في عرفات او منى لانهم أبوا ان يتقوا لهيب حرارتها بمظلة. فتحمل المشاق في القيام بمناسك الحج واجب وفيه تمحيص للذنوب ، ولكن اوجب من ذلك الوقوف فيه عند الحد الذي لا يؤذن بالخطر . وكان حقاً على العلماء أن يعطوا هذا المعنى حقه في الدروس التي يلقونها في الحرم امام الحجاج المتواردين، فان قتل النفس في العبادة أشبه بان يكون منزعاً هندياً من أن يكون منزعاً اسلامياً .

على ان منع جميع الحجاج من مثل هذه الامور مع كثرة العامة بينهم سيبقى متعذراً، فكان الأولى أن ينظر في امر عرفة ومنى وان تقلبا عن حالتهما الرملية الصحراوية الحاضرة. فينبغي ان يبادر الى حفر آبار ارتوازية في طول صحراء عرفة وعرضها حتى تفيض من تحت الارض المياه الى ما فوق الارض ثم تبنى القنوات والصهاريج وتغرس حفافيها صفوف الاشجار والرياحين ،

فتهدل هنـاك الاغصان ، وتتدلى الافنان ، وترف الظـلال ، ويتسلل الزلال ، فتخف حرارة الشمس ويلجأ الحجاج في مثل هذه الايام العصيبة الى ظل ظليل ، وهواء بليل ، فتكون درجة الحرارة تحت فينان الدوح ادنى منهـا في الشمس بخمس عشرة درجة ، ويصير الحـاج اذا تعرض للشمس قـادراً ان يفيء الى الظل . وقد يجد القارىء هذا الفكر خيالاً ، ويصعب عليه ان يرى في تلك الصحراء حياضاً وجناناً ، وروحاً وريحاناً ، وهذا كله خطأ في خطإٍ او استخذاء في الهمم .

فالاوربيون احتلوا بلداناً كثيرة من افريقية وآسية هـي في الحرارة مثل مكة ومنها ما هـو أشد حرارة من مـكـة ، وترى هذه البلدان الآن —بفضل العلم والفن والدأب والثبات— غير ما كانت من قبل ، قد بُدلت فيها الارض غير الارض وقد خفت فيها الحرارة درجات عما كانت بما اسالوا اليها من مياه ، وما غرسوا من أشجار ، وما أحدثوا من مروج خضر ، وما ازالوا من غبار ، وهكذا صارت قابلة للسكنى وصار كثيرون مـن الاوربيين يقيظون فيهـا بالسهولة ، وذلـك انهم سألوا العلم فأجابهم ، واستدرّوا ضرع الفن فجاد عليهم ، واعتصموا بحبـل الثبات فأورثهم الثبات نباتاً ، وتغلبوا على الطبيعة وخففوا بأسها ونعموا حرشتها ، ونحن باقون على مـا كنا عليه في القرون

الوسطى او قريب من ذلك ، نجد كل تغير بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وننسى ان من البدع بدعاً مستحسنة لا بد منها ، وان الضلالة كل الضلالة هي الجمود على القديم الذي لا قوة له الا حكم العادة ، ولا كتاب يأمر به ولا سنّة. وان لم يبق لنا عذر من قِبَل الدين والعرف رجعنا نلتمس لانفسنا المعاذير من عدم اجابة الطبيعة نفسها الى ما نريد .

(الارتسامات اللطاف)

العباسيون والسواد

... وسأل الرشيد الاوزاعي، رحمهما الله تعالى، عن لبس السواد فقال: اني لا أحرمه ولكن أكرهه. قال: ولمَ؟ قال: لانه لا تجلى فيه عروس، ولا يلبي به محرم، ولا يكفن فيه ميت. فالتفت الرشيد الى أبي نواس فقال: فما تقول أنت في السواد؟ فقال: النور في السواد يا أمير المؤمنين. ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين لا يكتب كل من كتاب الله عزّ وجل، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال العلماء رحمهم الله تعالى إلا به، وهو مضاف الى الخلافة. فلما سمع الرشيد هذا الوصف في السواد اهتزّ طرباً وأمر له بجائزة سنية.

قلت نسبة هذه الرواية للرشيد خطأ محض، وكنا نقول انها سهو ناسخ تبدل لفظة الرشيد بالمنصور لولا مجيء قصة أبي نواس من بعدها. ووجه الخطإ ان الامام الاوزاعي، رضي الله عنه، توفي يوم الاحد اول النهار لليلتين من صفر سنة سبع وخمسين ومائة، هذا الذي عليه الجمهور رواه العباس بن الوليد العذري قاضي بيروت المتوفى سنة ٢٧٠ قال عنه ياقوت في معجم البلدان انه كان من خيار عباد الله.

وقد نقل هذه الرواية عن وفاة الاوزاعي زين الدين بن تقي ابن عبد الرحمن الخطيب في كتابه « محاسن المساعي في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي » وهو مخطوط اطلعت عليه أخيراً في المكتبة الملوكية في برلين ، وعلمت منه ان مؤلفه اكمله سنة ١٠٤٨ وهو لا يقول « في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي » بل « في مناقب الامام ابا عمرو الاوزاعي » لا اعلم اهو من خطإ الناسخ أم من نفس المؤلف عملاً بلغة « ان أباها وأبا أباها » . وقال ابن خلكان عن وفاة الاوزاعي: وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة ، لليلتين بقيتا من صفر ، وقيل في شهر ربيع الاول، بمدينة بيروت. أما الرشيد فقد كانت ولادته سنة ١٤٨ اي انه يوم وفاة الاوزاعي كان قاصراً . واستخلف الرشيد سنة ١٧٠ . فالخليفة الذي سأل الامام الاوزاعي عن السواد هو المنصور لا الرشيد ، لأن الاوزاعي جرى بينه وبين المنصور حديث طويل . ولما قدم ابو جعفر المنصور الشام زاره الاوزاعي ووعظه ، فعظمه الخليفة وأحبه . ولما اراد الانصراف من بين يديه استأذنه ان لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب : الحقه فاسأله لم كره لبس السواد ولا تعلمه اني قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأني لم ارَ محرماً احرم فيه، ولا ميتاً كفن فيه، ولا عروساً جليت فيه، فلهذا اكرهه .

أما ابو نواس فيجوز ان يكون قال للرشيد هذا واكثر منه لكن بدون ان يكون الاوزاعي حاضراً . وكيف كان الامر فكان السواد شعار العباسيين وكان يقال لهم المسوّدة . وكان الخلفاء العباسيون يخلعون حلل السواد على من ينتسب اليهم او ينال الحظوة عندهم . جاء في « تاريخ الاعيان في جبل لبنان » للشيخ طنوس الشدياق والمعلم بطرس البستاني ، انه لما وقع القتال على نهر بيروت بين المردة والامير النعمان ابن الامير عامر ابن الامير هاني بن ارسلان، وهزم الامير النعمان المردة وقتل بعضاً وأسر بعضاً وكتب الى موسى بن بغا في بغداد يخبره وأرسل الرؤوس والاسرى الى بغداد عرض ذلك موسى للخليفة المتوكل، فكتب اليه المتوكل كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال ، واقره على ولايته تقريراً له ولذريته ، وارسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً اسود ، وكتب اليه اخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها ، واعاد رسله مكرمين فتقلد الامير السيف وشدّ المنطقة ولفّ الشاش ودعا لأمير المؤمنين وزينت البلاد الخ . وهذه الرواية محررة لكن باختصار في سجل نسبنا الارسلاني .

والخلاصة ان بني العباس أرادوا ان يتميزوا بشعار فجعلوه السواد اقتداء بجدهم عبدالله بن عباس الذي اقتدى بابن عمه (ص) في اعتمامه بالسواد يوم فتح مكة . (الارتسامات اللطاف)

رثاء أخيه

من قصيدة يرثي بها الامير
امين ارسلان .

نسيب قد كان ساري الطيف أبدى لي
رؤيا تناهى بها ذعري وإجفالي

رأيت في دارنا الأفواجَ أشبهَ بالأمواج
ما بين إدبار وإقبالِ

فقمتُ والبالُ مني كاسفٌ قلقاً
مستقبلاً من حياتي كلَّ ذي بالِ

وما مضت ساعة إلا أذنت بها
مصيبة حققت خوفي وأوجالي

غدَت عليَّ سلوك البرق ناقلة
نبأً يقطع أسلاكي وأوصالي

تلك التعازي التي الاخوان تُبرقها
وذي المدامع منها كل هطّالِ

أيقنتُ حقاً بأني قد فقدتُ أخي
ومن أرجّي لأهوالي وأوهالي

أيقنتُ أنك بعد اليوم مغتربٌ
عني ولستَ مجيباً بعدُ تسآلي

شعرتُ اذ ذاك ان لا أزرَ ينهض بي
واني رازحٌ من تحتِ أثقالي

كأنني في فَلاة لا أنيسَ بها
والأرضُ صارت جميعاً ربعَها الخالي

نسيبُ غادرتني من بعدِ بُعدك في
عيش تبدّل آلامي بآمالي

لك الخلاص من الدار التي طُبِعتْ
على الشقاء، ولي حُزني وإعوالي

قد كنتُ أطمعُ أن ألقاكَ والهفي
ولو تَطاولَ بي حلّي وترحالي

حتى أتاني نبأً قد ردَّ لي أملي
واحسرتي أمل الظمآنِ في الآلِ

لم يبقَ لي بعدَ ذاك النعي من أملٍ
إلا بدمعٍ طوالَ الليلِ سيّالِ

أبكيكَ في غربتي مضنى نوىً وتوىً
بالبعدِ والموتِ ، فانظر أيَّ إذلالِ

أبكيكَ حين ألاقي الناسَ مجمعةً
تبكي بكائيَ من دانٍ ومن عالِ

(الديوان)

رثاء شوقي

قد أعجز الشعراءَ طـولَ حياتهِ
واليومَ يُعجزهم بندبِ مماتـهِ

هيهاتَ يوجـدُ في البريَّـةِ منهم
كفـؤ ليرثيه بمثـلِ لغاتـهِ

كان الأمـير لجيشهم مستنة
فرسانهم في الظـلِّ من راياتهِ

مـا عاب أهـلَ العبقرية أنهم
قد قصَّروا في الخَـبِّ عن غاياتهِ

هذا أمـيرُ الشعر غـير مُدافَـعٍ
في الشرقِ أجمع منذ فتْق لهاتهِ

لو كان وحيٌ بعـد وحي محمـدٍ
لانشقَّ ذاكَ الوحي عن آياتـهِ

السحرُ في نفَثاتــه والزَّهـرُ في
نفحاته والدهرُ بعضُ رواتهِ

رقـَّت لنغمته القلوبُ فكيفما
غنـَّى بهـا رقصتْ على نبراتهِ

تغدو المعاني العُصمُ شُمس مقادة
فيقودُها قودَ الغـلام لشاتهِ

واذا أراد الصخرةَ الصمَّـاءَ من
أغراضهِ رقـَّتْ نظيرَ سِحاتهِ

ما رام شارد حكمةٍ في نظمـهِ
إلا أصـابَ صميمهـا بحصاتِـه

جلـَّى الاله له الأمورَ كأنـَّمـا
يُلقي عليها الشمسَ من نظَراتهِ

فكسا الطبيعةَ من نسيجِ بَيانهِ
حُللًا نَخلَتْ من غير طرزِ دواتهِ

فترى الطبيعةَ قبـل نظرَتهِ لهـا
غيرَ الطبيعةِ وهي في مرآتهِ

والحُسنُ يشرقُ في العيون بذاتهِ
وهنا يضيءُ بذاته وصِفاتهِ

هذا هو الشعرُ الذي بنبوغهِ
لم تحسن النظراءُ قرعَ صَفاتهِ

من كل بيتٍ في رفيعِ عمادهِ
تتقاصرُ الأقدامُ عن عتباتهِ

كالدّرِّ في لمعاتهِ والبدرِ في
قسَماتهِ والصبحِ في نسَماتهِ

ولقد روَيتُ الشعرَ عن آحادهِ
وألِفتُ للسبّاق في حلَباتهِ

وقضيتُ فيه صَبوتي وصبابتي
وقطفتُ منه خيرَ نُوّاراتهِ

وأثرتُ في الميدانِ بُزلَ فحوله
وأطَرتُ في الآفاقِ شُهبَ بُزاتهِ

فرأيتُ «شوقي» لم يدع في عصرهِ
قِرناً يهزُّ قناته لقناته

الفردُ في أمداحِـهِ ونواحِـهِ
والفـذُّ في أمثـاله وعظاتهِ

وإذا تعرَّض للغرام فهل درتْ
لغةُ الغرامِ نظيرَ شوقيَّاتـه ؟

ما في الهيـامِ كوجده وحنينـهِ
او في النسيبِ كظَبيهِ ومَهاتـهِ

أو بات يعبثُ بالشرابِ أضاف من
كاساتهِ حببـاً الى كاساتـهِ

او خاض في ذكرى العذيب تشابهت
أعطـافُ مُستمعيه مـع باناتهِ

واذا تحـدَّث بالربيع وروضهِ
أنساكَ بالتحبيرِ وَشيَ نباتـهِ

أو سَلَّ في وصف الوقائع صارماً
خِلتَ العُدى سالت على شفراتهِ

لا رتبةٌ تعلـو مكانتَهُ ولا
شرفٌ يُنافُ عليـه من شرفاتهِ

نَحَتَ القوافي السائراتِ أوابداً
ماذا يفيدُ النحتُ من اثلاتهِ ؟

قد بَذَّ آلهةَ القريضِ بأسرِهم
ومحا عبادةَ لاتهِ ومَناتهِ

يُنضونَ كلَّ نجيبةٍ ان يطلعوا
جبلاً يحلُّ الرأس من شعفاتهِ

ولكَم مررتُ بحاسدينَ لفضلهِ
رغم القِلى يروون من أبياتهِ

لا نِدَّ يعدِله وكم من مجلسٍ
أشعارُ شوقي النَّدُّ في سمراته

يتمثلُ العصرُ الحديثُ بشعرهِ
حقَّ التمثلِ من جميع جهاتهِ

ولرُبَّ بيتٍ يستقلُّ بجملة
تغني عن التاريخ في صفحاتهِ

لم يفتتن من عصره بمساوىء
كلا ولم يغمطه من حسناتهِ

قد لازم الانصافَ في أحكامهِ
لا فرقَ بين صِحابهِ وعُداتهِ

واذا سألتَ عن الجهادِ فإنه
منذُ الحداثة كان في سَرواتِهِ

كالسيفِ في أوضائه ومضائهِ
والليّثِ في وثْباتهِ وثَباتهِ

ما حلّ بالاسلامِ حيفُ مصيبةٍ
إلا وكان بها لسانَ شكاتهِ

يحمي حقائقَهُ ويوضحُ سُبلَهُ
ويُقيلُ طولَ الوقت من عثَراتهِ

يُلقي على غمراتِ كلِّ ملمّةٍ
قَولاً يزيلُ أُجاجَها بفُراتهِ

ويظلُّ يرسلها قصائدَ شُرّداً
غُرَراً تشقُّ الفجرَ عن ليلاتهِ

كانت قصائدُه هي الصوت الذي
سرّى عن الاسلام ثقلَ سُباتهِ

بعثتْ به روحُ الحياةِ كأنها
هي صُورُ إسرافيلَ في زعقاتـهِ

قد كان أدرى الناسِ بالداءِ الذي
قد حطّ هذا الشرقَ عن صهواتهِ

داءٌ هو الأخلاقُ في اضمحلالها
فلذا ترى الاخلاقَ رأسَ وَصاتـهِ

وفّى عن الشرق القديم نضالَـه
من يومِ نشأته ليومِ وفاتـهِ

قـد ذاد عنـه بقلبه وبلُبِّـه
شأنَ الأبيّ يذودُ عن تركاته

ماضٍ يحذّره استلابَ تُراثـه
منه ويحفزه لأخـذ تِراتـهِ

أعلى منـارَ الشرقِ في أوصافهِ
وأجاد وصفَ الغرب في آفاتهِ

ووَحى الى الشرقيّ بالطـرق التي
يمشي النجاء بهـا لأجل نجاتـهِ

أَمْلى مكافحةَ الذئابِ عوادياً
بالوادِ قد حلـُّوا مكان رُعاتهِ

الجائسين ببحره وببَرِّهِ
والجائشين بنجده ووطاتهِ

والغاصبين لزرعه ولضَرعه
والآكلين لتمره بنواتهِ

أشعاره تحيا وتحيي أمةً
تجدُ الحياةَ الحقَّ في كلماتهِ

(الديوان)

الاسرى[1]

...أما الاسرى فليسوا كأسرى هذه الايام، فكان المسيحي اذا وقع أسيراً كبّلوه، واذا انتهت قسمة الغنائم عرف الاسيرُ ذلك الرجلَ المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير له مملوكاً يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيده ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود اولاده ايضاً أرقّاء نظير والدهم . واذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الاسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً، فإذا اسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكّه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لان تحرير الرقاب هو من افضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الاحرار ويبلغ من درجات العلياء ما يقسم له حظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى، وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً. وهناك طبقة اخرى وهي طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط ان يؤدوا الى سادتهم شيئاً معلوماً كلّ سنة .

وان كان الاسير المستعبَد أبى ان يتحول عن دينه الى

---

١ نقلاً عن المستشرق رينو .

الاسلام فقد كانوا يستعملونه في حرث الارض أو في حمل الاثقال . وقد وُجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة ، وكان يعوَّل عليهم في الحروب ، وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيما في قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً دون أمل في الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الاسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقاً أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحرروا مَن عندهم من الاسرى . وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية ، فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور واناث . وكان المسيحيون يجمعون أموالاً ويذهبون الى اسبانية وافريقية لافتكاك الأسارى ، هذا يفتكُّ أباه وهذا أخاه وهذا صديقَه وهلم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في اوربة لم يكن لها عمل الا افتكاك الاسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيلية الذي ذهب في سنة ١٠٤٧

الى الاندلس برغم ضعف جسمه و كثرة أمراضه ، وافتكّ عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم في البحر هاجمهم قرصان فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعياً حثيثاً ويذهب ويجيء حتى افتكّهم مرة ثانية ، وعندما جاء بهم الى مرسيلية كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطىء ارض مرسيلية حتى مات دنفاً .

وأما الرقيق من النساء فكنّ يشتغلن في قصور الأمراء وحرم الاغنياء ، ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهنّ ، واذا امتازت احداهن بجمال او قسام كانت تعلّم وتهذّب وتباع بثمن غالٍ او يتزوج بها مالكها ، وكثيراً ما كن يُرسَلن هدايا الى الخلفاء والكبراء ، وذلك كما حصل للأميرة « لمبيجية » ابنة أود دوق اكيتانية التي صارت الى الخليفة في دمشق . واذا تزوج المسلم بأمَة صارت بذلك حرة وكان اولادها أيضاً احراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضي بأن يعترف بهم فإنهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماماً ويقال لها عندهم أم ولد . وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء

اللائي يقال لهن أم ولد . وكان اولاد هارون الرشيد ، ما عدا واحداً فقط ، كلهم ابنـاء جَوارٍ يقال للواحدة منهن أم ولد . اما اذا كان الأب ولد له اولاد من جاريته ولم يرد ان يعترف بهم فإنهم يبقون هم وأمهم عبيداً .

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ، بالحادثة الآتية :

في اواخر القرن العاشر وقع رجـل من احلاس الحرب ، من بلدة طلوزة ، أسيراً في اثنـاء ذهابه لزيارة بيت المقدس ، فصار الى بيت رجل من الاغنياء استخدمه في حرث الارض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانـه لا يحسن غير القتـال ، فجعلوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى ان حضر حرب قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه امره . ولمـا كان « شنجو » كونت قشتيلة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ما شاهده من إقدام هذا الرجل امر بإطلاق سبيله .

اما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيـدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي اوربة ،

فإذا كان يُستعبد فيها الاوربيون فبديهي ان يُستعبد فيها الاسرى من المسلمين . ولم يكن فرق بين الاسرى في الاسلام والاسرى في بلاد الافرنج ، سوى ان الرقيق في الاسلام اذا تحرر اصبحت له جميع حقوق الاحرار ، بخلاف القاعدة في اوربة فإن طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان المسلمون يبذلون ايضاً الأموال في افتكاك اسراهم ، فمنهم من يفكه اهله ، ومنهم من يفكه اصحابه ، ومنهم من يفكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات لفداء الاسرى كما عند المسيحيين، وذلك أن فك العاني معدود من افضل الاعمال في الاسلام. وقد سأل محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، سائل عما يجب ان يعمله لينال افضل الثواب فأوصاه النبي بتحرير الرقاب . وقد روى النويري ولوذريق شيميناس أنه في زمن الامير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن اسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه .

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آرل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتي أناس من أبناء ملتهم الى هذه المدن فيفدونهم ، فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم

في خدمة مالكه . وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث . وكان يحق لمالك العبد ان يبيعه او ان يضربه او ان يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفروا. ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق ان يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصارى ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك ، وهو انه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمَة ولو كانا من ملة واحدة ، وانما كان للمالك ان يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد ، ولكن على شرط ان الاولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من اوربة في نواحي القرن الثاني عشر إلا انه بقي جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثاني عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو ، غير ان ذوي التقوى كانوا اذا ارادوا ان يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم اعتقوا عبيدهم ، ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب ان يتعمد ، اي ان يتنصر ، يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمَّة .

(تاريخ غزوات العرب)

العرب في ايطالية وسويسرة[1]

قال فرديناند كلر في كتابه :

قال ليوبراند : انه بحسب ارادة الله التي لا يُدرَك سرها قد جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ، قذفت بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس «ترويز» في «بروفانس» ، فنزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم في جوف الليل، فتسللوا الى قرية ترويز وفتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية . ثم اتخذوا معقلاً الجبل المسمى «موروس» ليكونوا في حرز حريز من عادية الامم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالاشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شِعْب واحد لأنفسهم يمرون فيه . وهذا المكان يسمى « فراكسيناتوم » يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتشبة مشتبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواكٌ احدُّ من الحراب فلا يقدر ان يتقدم ولا ان يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سَرَباً، وصاروا يجولون في الجهات

---

١ نقلاً عن الالمانية .

المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكمنهم هذا . ثم أنفذوا رسولاً الى اسبانية لأجل ان يندب الناس من قومهم ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه ، وقال ان اهل تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاؤوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته .

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل ان يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين ، فكان من اختلاف اهل تلك البلاد ، ومن توالي النجدات الى العرب من اسبانية ، ان أصبح هؤلاء آمنين في سَربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاؤوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصيبة اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغانم كثيرة .

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل «فراكسيناتوم» وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقي مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من اوربة ، وصيصية يمتنعون بها ويبعثون منها شراذم ، كثيرة او قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب

البحرية . وما عتموا ان صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها، برعب الناس منهم ، وباعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار لأجل الغنائم ، فإذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعاقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعاً صفصفاً كأن لم تغنَ بالامس .

والذي يظهر جلياً من روايات مؤرخي ذلك العصر ان هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسي كغيرها من الغارات ، ولا كان لها غرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهل هاتيك البلدان لسلطانها ، وذلك لان عددها لم يكن كافياً لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترمي اليه ان تحوز الذهب والكنوز التي تعثر عليها ، وتعود بها الى معقلها في جبل فراكسيناتوم ، وانها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فراكسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر ان خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها ادنى مدد من جهته .

واما السؤال عن الوقت الذي اجتاز فيه المسلمون جبال

الالب ، وتوغلوا في ارض ايطالية ، فإنه لا يجد جواباً مستنداً الى معلومات دقيقة ، ويجب ان يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في اوائل القرن العاشر. فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير « نوفاليزة » الذي على مقربة من « سوزا » بحذاء جبل « سنيس » على ان غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦ . فمنذ تلك السنة كانوا في « بروفانس » و «بورغوند» و « شيمله » حول « نيسه » يجولون ويقتلون ويحرقون. ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواي وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزة الذي كان من اعظم الاديار واغناها . فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم ، حزموا ما في الدير من الاشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بمأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شيء واحرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان في السن قد بقيا في الدير لأجل حراسته ، فقبضوا عليهما .

وفي ذلك العهد اصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » و « الرون » مجالاً للغارات والعيث ، فالبيمون وبروفانس

وبلاد « دوفيني » و « مونتفرات » وبلاد « تارنتـيزة » كانت كل سنة عرضة للدمار والنـار . وقـد حدّث مدونو الوقائع اليومية في ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابري السبيل ، ويسلبونهم ما معهم ، واذا حاولوا الدفاع عن انفسهم يقتلونهم . وكان أكابر القوم لاسيما الرؤساء الروحيون الذين يؤمون رومـة واقعين تحت الخطـر الشديد من غارات العرب ، بسبب مـا يحملون من الذخائر ومـا يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وامـا في القرى فـلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ما له قيمة ، ويقبضون على الرجـال والنساء والاطفـال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا اذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم اناس في المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيّـروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات احياناً بين البـلاد بسبب غارات العرب ، وكان أهـل الاماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفير عـام ، ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوئام بين أهل

البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الاعداء . وكان من الطبيعي ان يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لانهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثمام ، وكان المسافرون الاغنياء يأخذون معهم في اسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابلين بالسهام والحجارة ، ومن القائم في الأودية والمهاوي بحيث انهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على ما لا تقدر عليه الجيوش الكبيرة .

وروى « فلودوارد » في تعليقاته السنوية ان المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة انكليزية اخرى وفتكوا بها . ثم انهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج اخرى ايضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل ان يقعوا في ايديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا نقدر ان نحكم في أي محل حصلت ، أفي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسة ؟ واذا

فكرنا انـه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة ان يجتازوا من معبر سان برنار لزم ان نرجّح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت ان « كنوت » ملك انكلترة والدانمرك الذي كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف الثالث ملك بورغوند ان يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق او من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمون رومة .

في اي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذي كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس، وفي اية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟

هذا شيء لا نقدر ان نحدده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، الا انها لا تحتوي على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذي يظهر من كلام رينو انه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ ، لكننا سنرى فيما يأتي أنها جرت قبل هذا التاريخ . ومن المحقق ان العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادي الرون الخصيب ، حيث كان مبنياً دير « اغاوونوم » العظيم ، المؤسس على اسم سان موريتيوس وأصحابه ، والذي كان فيه ذخائر

كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمضِ الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » في اثناء سفرته الى بورغوند ، وزار هذا المكان لاجل نقل عظام الشهداء التي أذن له « كونراد » ملك بورغوند في دفنها في اوغسبورغ . ولم يكن باقياً هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طعمة للنار .

ومما جاء في تاريخ « فلودوارد » انه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغاليين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد ان فقدت بعض رجالها رجعت من حيث اتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور .

وقد ذكر مؤرخو الفرنسيس كتاباً محفوظاً موجهاً من راهب من دير « سان موريس » اسمه رودولف الى ملك فرنسة لويس الرابع المسمى « أوترمير » يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسة من « كلوفيس » و «داغوبرت» الى كارل الكبير لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلتمس منه ان ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه .

وفي ذلك الوقت كانت العصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال الألب المعروفة بالألب البونينية قد بدأت تشن الغارات على بحيرة جنيف وبلاد « فاد » كما ذكر المؤرخون المعاصرون . ويظهر أنها كانت استولت على معابر جبال الالب الشرقية . فاذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور» الاسقفية . فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « ان العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة . »

ومما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك ان جانباً من سويسرة الالمانية، وهو القسم الذي من « كور » الى وادي « الرين » ، كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الراتية العليا ، فان ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه إما ان تكون غارة العرب على مقاطعة « فاليس » قبل سنة ٩٣٩ او ان يكون احتلالهم لجبال الألب الراتية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ما ذهب اليه فلودوارد من ان احتلال العرب لمعابر الألب سنة ٩٣٦

او سنة ٩٣٣ يعني احتلالهم جبال الألب الراتية ، وانما المحقق كون « كور » ونواحيها قد اجتاحها العرب قبل سنة ٩٤٠، وانه ليكون ذا بال ان نتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد، هل جاؤوا من البيمون منقسمين شطرين : شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشطر الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة؟ الجواب: ليس بمستحيل ان يكونوا قصدوا ناحية « راتين » وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بسالتهم والرعب الذي وقع في قلوب الناس منهم ، ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات « لانغن » و « كومر » وعرفوا مسالك الألب . ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ، ولكن قد افترضنا ان العرب تقدموا من « مارتيناخ » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية « فوركا » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي « آورزيرن » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وابواب معبر الألب الراتية . وهذا الافتراض لا يستند الى رواية مكتوبة ، وليس فيما وجد في دير « ديسنتيس » الواقع امام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا ان المؤرخين لا يزالون يعتقدون ان العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا ديرها قد اجتاحوا ايضاً دير « ديسنتيس » .

واما السند الذي ثبت بـه حضور العرب في وادي الرين فهو ان هرمان امير سويسرة الالمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقـده الامبراطور في « كويد لنبورغ » في شهر نيسان سنة ٩٤٠ ان يهب « فالتو » اسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وان الامبراطور قد أجاب رجاءه فعهـد الى الاسقف المذكور بادارة كنيستين احداهمـا كنيسة « بلودنس » في وادي « دروس » ، والثانيـة كنيسة سان مارتين في وادي « شامزر » ، على شرط ان ريع الأولى يعود الى اساقفة كور، وان ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس » .

وظاهر ان العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد، وانه وقع منذ سنة ٩٣٩ ، وان احتلالهم للألب الراتية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وان هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذي يذهب رينو الى انه وقع عند عبور العرب من سان برنار .

ولكن في قولنـا انهم عاثوا واكتسحوا تلك البـلاد ، لا نعني انهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكامنهم لدى الفرصة ، فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حيـاة عصابة تنتجع في كل يوم

جبلاً متى لاحت أمامها بارقة امل في الكسب أقدمت ، وإلا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال يلجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الاودية العميقة وفي المضايق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى اعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الاديار المملوءة بالأعلاق الكنسية .

(تاريخ غزوات العرب)

رقصة اسبانية

... ولما ذعر الفتيات الاسبانيات بمفاجأة ابن حامد لهنَّ في الغيضة النارنجية لدى سماع الالحان الشجية اسرع الدون لذريق اليهنَّ فقالت له ادماء : يا أبتِ ! ها هوذا الشريف المغربي الذي حدثتك عنه ، لقد سمع صوتي فعرفه ودخل الروضة يشكرني على إرشادي اياه الى طريقه ذلك اليوم .

فلقي « دون صنتافي » ابن سراج لقاء قومه الاسبانيول بما اعتادوه من الرصانة في السذاجة ، فانه لا يوجد عند هذا القبيل شيء من أطوار التذلل ، ولا يُسمع من احد منهم كلام يدل على إسفاف الهمة وتسفُّل النفس ، بل لسان الصعلوك المسكين منهم أشبه بلسان السيد الشريف ، والهمام الغطريف ، والسلام واحد والعادات والاصطلاحات واحدة ، وعلى قدر ما عندهم من الامانة وحسن العهد وكرم الاخلاق والبر بالغريب ، تجد عندهم من حدة الانتقام والاخذ بالترات والجزاء على الاساءة والخيانة ، قومٌ أولو بأس شديد ، وقلوب من حديد ، لا ينكسرون امام البخت ، ولا يولون الأدبار ، اذا لم تساعف

الاقدار ، فلهم الصدر أو القبر ، لا يتصفون بفرط الدهاء ، لكن أهواءهم الشديدة وقلوبهم المشيعة تقوم لديهم مقام الافكار الثاقبة، والآراء الصائبة ، فتغنيهم نار الحميَّة عن نور الالمعيَّة، وقد يكون الاسباني قضى سحابة يومه لم يكلم انسياً ولا رأى بشراً ولا مال الى الاطلاع ولا الى الاستماع ، ولا قرأ ولا تبحر ولا قايس ولا استنبط ، ولكنه يجد في علو همته وسمو مقاصده وإبعاد مراميه المؤونة اللازمة لاستقبال طوارق الدهر.

وكان ذلك في اليوم الموافق يوم ولادة الدون لذريق حيث احتفلت ادماء بعيد مختصر في ذلك المجلس الانيس بين الظلّ الممدود والماء العذب والنسيم العليل ، فدعا الدون ابن حامد للجلوس بين اولئك الغيد اللاتي كنّ متعجبات من مرأى الغريب وعمامته وجبته ، ثم جيء بطنافس حريرية فجلس السراجي عليها على عادة المغاربة ، فأخذن يسألنه عن بلاده وعن رحلته وهو يجيبهن بهشاشة وبداهة ، وكان يتكلم باللغة القشتالية الحرة حتى يُظنّ انه اسباني لولا وضعه الكاف موضع خطاب الجمع ، وكان لفظه بتلك الكاف من اللطافة والعذوبة بحيث كانت ادماء لا تتمالك من غيرة خفية ان خاطب بها احدى صواحبها .

ثم جاء طائفة من الحشم يحملون معجون القهوة بالسكر مع

مربي الفاكهة وخبز السكر المالقي ، الناصع البياض كالثلج ، اللطيف الرخص كالاسفنج . وبعد الطعام دعيت ادماء الى رقصة كانت تفوق فيها الجميع ، فأطاعت بحكم الضرورة اجابة لالتماس حبائبها ، فلزم ابن حامد السكوت لكن عينيه تكلمتا عن فمه ؛ فاختارت ادماء رقصة ذات رمز اخذها الاسبانيول عن المغاربة ، وشرعت احدى الغواني تضرب على العود لحن تلك الرقصة الغريبة ؛ فعند ذلك حسرت ادماء نقابها تماماً واسدلت داجي شعرها على ناصع عنقها وعلقت بأناملها البيض فقاعات من خشب الآبنوس تدق بعضها ببعض ، هذا وثغرها وعيناها متساوية في الابتسام ، ومنظرها بحرارة فؤادها مشرق القسام ، فاندفعت تنشد الغناء المخصوص بتلك الزفنة محاكية بصوتها نغمة العود وموافقة بين نغماتها ورناته ، ومضت على ذلك مدة ، فلله ما ارشق حركاتها ، وألطف سكناتها ، تارة ترفع يديها بسرعة وطوراً تخفضهما على مهل ، واحياناً تثب وثوب النشوان بخمرة السرّاء ، ثم تنثني الى الوراء انثناء من رده العياء ، ثم تلفت رأسها وتلوح كمن ارادت نداء غائب ، ثم تميل بجيد الغزال الاعفر دانية بخدها الورديّ الى ان يخال امكان تقبيله ، ثم تنهزم وقد صبغها الحياء بعندم ، وتعود ساطعة الوجه فتمشي مشية راسخ ، وتتقدم كالجندي الباسل ، ثم تطير على ذلك

المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها واصوات العود ، وتجود بكل نغمة يترنح لها الجلمود ، زد على هذا الموسيقى الاسبانيـة في طبيعتها بما اشتملت عليه من الايقـاع المهيج ، والانشاد المحزن ، والغنـاء المتقطع ، تجمع الاضداد من فرح وشجن ، وتقرن ورقاء أيك الى هزار فنن ، فكان في هـذا العزف والرقص مـا فيه كفاية لتوطين نفس ابن سراج عـلى الغرام ، بل ربما اثرت تلك العشرة في اربط منه جاشاً ، واقل انتعاشاً ، وهوي ذلك الهوى بأثبت عزمـاً ، واوفر حلمـاً ، وقد قيل :

أنا ان لم أهوَ غزلان النقا ايُّ فرق بين قلبي والجماد؟

وعند الاصيل عادوا الى غرناطـة من طريق وادي حدرة وقد فـتن الدون لذريق من آداب ابن حامـد وكياستـه ورجاحته ما زاد تعلقه بـه وملازمته له ، حتى كان يرتاح جداً الى مجالسته لأدماء ومسامرته لها في احوال المشرق (وكل بلاد الاسلام عنـد الاوربيين مشرق) ، وكان السري المغربي أحب شيء اليه اجابة دعوة الدون ، بـل ثاني يوم ذلك المجلس توجه الى الصرح ، الذي فيه أدماء أضوأ في عينيه من الصبح .

(آخر بني سراج)

اجتماعنا الاول في باريس

...وبقيت لا اعرف شوقي معرفة شخصية الى سنة ۱۸۹۲ اذ ذهبت من الاستانة الى فرنسا قاصداً السياحة ومستشفياً من مرض طرأ عليّ . وكان احمد شوقي يدرس علم الحقوق في مونبلييه ، وفي اثناء العطلة المدرسية جاء الى باريس ومعه رفيق اسمه دلاور ، فبينما نحن في الحي اللاتيني بحسب قولهم اذ جمعتنا الاقدار، وما عدت اتذكر كيفية اجتماعنا وتعارف بعضنا مع بعض ، ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين ، وأكثر تلاقينا كان في مقهى يقال له مقهى « دار كور » .

ومن غريب الاتفاقات اننا في سنة ۱۹۲٦ تلاقينا انا وشوقي، رحمه الله ، في باريس ، جاء فسلّم عليّ في فندق ماجستيك فذهبت ارد له السلام في فندق كان نازلاً به في الحي اللاتيني، فسألت عنه فقيل انه خرج الى النزهة، واذا بهذا الاوتيل على مسافة مائة متر من مقهى دار كور ، واذا بشوقي جالس هناك ومعه مطربه محمد عبد الوهاب ، فجلست اليهما وأخذت اتأمل

في دوران الدهر ورد العجز على الصدر . فقد كنت اول مرة عرفت فيها شوقي اجلس واياه في هذا المقهى نفسه ، ومضى على ذلك ستة وثلاثون حولاً ولم نجتمع في باريس ، فلما اجتمعنا اذا بنا من دون تعمد في هذا المقهى أيضاً . فقلت لشوقي : أتدري كم سنة مضت على اجتماعنا في هـذا المقهى ؟ هذه ست وثلاثون سنة . وكان ، رحمه الله ، لا يرتاح الى الاحاديث التي تذكره بالشيخوخة ، فقال لي : تمسكك بهذه التواريخ لا ادري لمَ ؟ فضحكت وعرفت انـه ضاق صدره من هـذه الذكرى وانا قصدت ان اتذكر نعمة بقائنا طول هذه المدة ولقائنا من بعدها ، هذا اذا كان طول العيش معدوداً من النعم .

وفي اثناء لقائنا الاول كنا نتذاكر حول امور كثيرة ، ولكن اهم حديث كنا نخوض فيه هو الشعر . وكان مع شوقي ديوان المتنبي ، وكان يحفظ منه ولا شك انه انطبع عليه ، وقد شبهت شوقي بالمتنبي في دقة معانيه وكثرة ابياته الجارية مجرى الامثال ، وشبهت البارودي بأبي تمام في علو نفسه وفحولة نظمه ، وشبهت حافظ ابراهيم بأبي عبادة البحتري في طلاوته وانسجامه . هـذا وبقيت انا وشوقي نتساقى كؤوس الصفاء ونتبادل عواطف الاخاء مدة شهر من الزمن الى ان حان إيابي الى الشرق فودعته وداع الأخ لأخيه وفارقته فراق الصفي لمن

يصافيه . وقد علمت منه اننـا في عمر واحد، فقد كنت سنة ١٨٩٢ في الثالثـة والعشرين من عمري، وظهر لي فيما بعد من مقدمة ديوانه الجزء الاول انه في سنة ١٨٩٨ كان شوقي في سن الثلاثين. والحال انني في تلك السنة كنت في التاسعة والعشرين، وعليه يكون شوقي اكبر مني بسنة او بعدة أشهر . وانا الذي أشار عليه بأن يجمع قصائده ويجعل منها ديواناً يسير في الاقطار، فسألني : واي اسم أعطيـه ؟ فقلت له: سمه بالشوقيات، فنسبة هذا الشعر اليك هي عندي كافية . فلما جمع ديوانه اطلق عليه اسم « الشوقيات » كما اشرت عليه بـه ، وقد ذكر، روّح الله روحه ، هذه القصة في ديوانه الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨ .

(شوقي او صداقة اربعين سنة)

أشعر الشعراء

بين المتنبي وشوقي

حضرة صاحب مجلة سركيس

سألتموني رأيي في الشعراء، فأشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ثم شوقي ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر الفائقون في اجادته ، بل هم اشبه بالثلاثة الماضين : أبي تمام الشعر ومتنبيه وأبي عبادته ، بل هم اليوم لات الشعر وعُزّاه ومَناته ، والذين رجحت لهم على غيرهم بيناته . واحب ان اشبه البارودي بأبي تمام في علو نفسه وقوة ملكته ومتانة اسلوبه ، وان اشبه شوقياً بالمتنبي في دقة معانيه وسمو حكمه وكثرة جوامع كلمه، كما ان حافظاً يشبه البحتري في سلاسة لفظه وحسن سبكه وتأثيره في النفس ، وهو وان لم يعلُ علوَّ شوقي في بعض أبياته فان عامة شعره أطلى من عامة شعر شوقي ، وغاية ما يقال فيهما ان جيِّد شوقي احسن من جيِّده ، وان هذا أعلى وذاك أطلى .

واما كون اسلوب شوقي ركيكاً فهو غير صحيح . وهذا

القول في حق شوقي هو أشبه بالقول الآخر في حق حافظ بأنه صانع ماهر وان حيلته أكثر من شعره ، وعندي ألف شاهد لولا خوف الاطالة لأوردتها على متانة اسلوب شوقي وتسنُّمه غارب العربية ، كما ان لي بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية وانه شاعر مطبوع ، الفصاحة فيه سجية لا تلهوق ، وان مثل حافظ في الشعراء قليل . نعم ان شعر شوقي ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارىء نسجاً واحداً ، وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً ، وربما أتى في كلامه بالتعقيد ، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد الى الإغراب في بعض المواضع فيأتي بالغث كما يأتي بالسمين .

وانما استحق ابو الطيِّب هذه الشهرة مع هذه الهنات لأنه كان متى اراد بذَّ الاولين والآخرين ، وانه متى علا لم يزاحمه احد بمنكب ، وان الذي يُحفظ من كلامه لا يُحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة فضلاً عن الخاصة . وهذا ما اراه في شوقي اليوم ، فان عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره ، وقد يحلِّق في سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودي نفسه ، وهو عندي حامل اللواء وأبو الجميع .

ولا يمكننا ان نسلم بركاكة أسلوب شوقي الا على مذهب من يرى المذاهب الجديدة في الشعر ولا يريد الشعر إلا كاظمياً ،

ومذهب من يرى في موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية . وهذا الرأي ليس بجديد بل هو قبل صاحب المنار . وقد كان بعضهم يعيب على المتنبي نفسه الحَيدَ عن جادة العرب في شعرهم، وفي مقدمة ابن خلدون أن المتنبي والمعري لم ينسجا على أساليب العرب ولكن لا يمكننا ان نقول ان هذا هو الرأي كله وانه جفّ القلم بعد هذا القول ، بل لكلٍّ رأي ولكلٍّ وجهة .

وأحسن ما قيل في شوقي انه في الشعر كأبي مسلم في القوّاد أقام دولة وأقعد دولة ، فانه نسج على منوال جديد ، وانتهج خطة حديثة تلائم روح الوقت الحاضر لكن مع الوفاء بحق اللغة والامانة مع العربية . ولولا متانة لغة شوقي لما عد شاعراً أصلاً، لان نقاوة اللغة هي الشرط الاول للشاعر والكاتب والمعاني وحدها لا تكفي ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم .

ومما اعجبني جداً في نعت شوقي ان شعره لوح الصبي في مكتبه ، وسبحة الناسك في صومعته ، وكأس الشارب ودمعة الباكي الخ . فكل هذا القول في شعره حق ، لأنك تجد شعره بستاناً فيه من كل الرياحين ، او على رأي أهل العصر معرضاً فيه من كل البضائع .

ومما يطيب سماعه عن شوقي وهو يتعلق بالاخلاق لكنه

من رشح اناء الفضل قول القائل : انه صفت نفسه فلم يستشعر في نفسه عيباً يحتاج الى ستره بتنقُّص غيره، وعلت همته فوقف بين حساده وقفة رابط الجأش يناضلهم بسكوته وإغضائه . ولعمري انها عبارة شعرية لو نُظمت لكانت من أحسن الشعر. وأحسن ما فيها مطابقتها الواقع . فلا ينكر احد هذه الحال على شوقي وانه لا يقابل حساده والطاعنين عليه إلا بالسكوت وهو أحياناً أقتل من الكلام . على انه في الواقع غير ساكت، فاذا لم يجاوب منتقده رأساً جاوبه من جهة ثانية بقصائده الى الجمهور . فترى بإزاء كل « همزة من تلك الهمزات وحرف من هاتيك الحروف » كل قصيدة يقام لها ويُقعد وكل بيت أذن الله ان يُرفع ويشيد .

اما القول بأن محمود سامي هو مقلد شأنه معارضة الاولين وهيهات ان يلحق واحداً منهم فهو شبيه بالقولين الاولين في الظلم . وانما اختار المعارضة في بعض المظانّ ليعلم الناس شأوه مع من تقدمه . وليست المعارضة بشأن جديد، بل كانت عند الماضين وقد استحسنوها ولم يحسبوها تقليداً ولا عدّوها نسخة محررة ولا صورة مطبقة . وانما كان ينظم الواحد قصيدة ترن في الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنانة اخرى من البحر والقافية كما يجاري الفارس فارساً في مضمار . وهذه قصيدة أبي نواس

الرائية في الخصيب عارضها ذلك الاندلسي قبل محمود سامي ، وكل منهما اجاد ، ولم يقل احد إنّ الاندلسي مقلد لا مزية له ، وانه انما صوّر صورة كانت أمامه . فمحمود سامي قد عارض وفاق من تقدمه وقال في غير معارضة فأتى بالشعر الفحل الذي يعيي على الاوائل فضلاً عن الاواخر . وكل ذي مسكة يقدر ان يميز بين التقليد والتوليد . ولا ينبغي ان يؤخذ من كلامي هذا في تفضيل الثالوث الشعري الاستخفاف بقدر الباقين ، فان الذين فضلوا حبيباً والمتنبي والبحتري لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ، ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين جمة   وما قصبات السبق الا لمعبد

ولا بد في الميادين من مجلٍّ ومصلٍّ وتالٍ ومرتاح الى السكيت . واني ارى الكاظمي وصبري وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشىء والنامي والزاهي والمعري وأمثالهم ، فليست شاعرية ابي تمام والمتنبي والبحتري بنافية براعة هؤلاء ، بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك .

بقي شيء استحسنته من كلام فاتح الباب ، وهو ان الشهرة لا تصح ان تكون بحال من الاحوال ميزاناً للفضل ، ولن

يجزي الفضل والذكر في ميدان واحد لأن في الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه ، بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه فلا يترنم بقصائده في النوادي ولا يبتاع من الصحف الالقاب ولا يستخدم الكتّاب لاطرائه ولا يتمم نقصه بالغض من مقام غيره . وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة وفلذات منقطعة من كبد الصواب ، فان الشهرة مزلقة ولا يصح اتخاذها معياراً. وقد يقبع في كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام . ولا اريد من ذلك الطعن في حب الشهرة وتضعيف هذا المشرب وهو مبعث الهمم ومثار كوامن الفضائل ومظهر درر القرائح من اصداف الأدمغة . ولكن اريد ان تكون درجة الشهرة هي درجة الفضل ، فكم في الزوايا من خبايا . كذلك لم أعزز رأيي في الشعراء بالشواهد من أقوالهم ، ولعلي ارجع الى البحث وأختار من دواوينهم على مهل ، فقد وجدت الشواهد التي أوردها غيري غير وافية ، وقد اهمل ما هو أحسن منها. وانما استحسنت ما أطيل من شواهد شعر الكاظمي لأنه كان غنى صوتاً واحداً في وادي النيل ، فلمْ نتحقق فضله على طوله، فاذا به بعد هذه الاصوات كلها مغنٍّ على أصول . والله تعالى ذو الفضل العظيم « يزيد في الخلق ما يشاء » .

(شوقي او صداقة اربعين سنة)

انصراف شوقي الى الشعر

... هذا وكان شوقي متصلاً بخدمة سمو الخديوي السابق ، ومنذ بداية نبوغه لقبوه بشاعر الامير ، فصار ذلك اللقب باعثاً له على زيادة الاجتهاد وفرط الارتياد حتى تكون مكانته الشعرية متناسبة مع المقام العالي الذي يخدمه بشعره . وبعبارة أخرى من حيث قيل له شاعر الامير آلى على نفسه ان يكون امير الشعراء ، فانصرف بكليته الى الشعر حتى تعطيه الاجادة قيادها ويعلم العزيز سيده انه ان كان هو سيد الامراء فان شاعره سيد الشعراء ، وان هذا المقام الذي يشغله شوقي برسمه يشغله أيضاً بنظمه . فاذا لزم ان يكون شاعر الامير سبّاق الحلبة ومقدام العصبة فانه لكذلك ، وان سليقته قبل وظيفته . وقد كان هذا الحرص منه على إفهام سيده انه الشاعر الذي لا يُشقُّ له غبار والذي اتفقت على تقديمه الاقطار هو الذي يدعوه ان يكون ابعد من غيره نجعة واوسع فتوحات عقلية ، فلا يقول الشيء الذي يقوله سائر الناس . فكان يقضي معظم اوقاته في تجويد نظمه وتسديد سهمه ، في تعمير صدره بالمعاني العالية وشحذ خاطره بالمرامي الدقيقة والاغراض السنية ، حتى صار ذلك خلقاً

له غير منفك عنه ، وصار اذا قـال كلمة سارت في الآفاق وتطاولت الى قراءتها الاعناق وبذخ فيها على الشعراء بالاتفاق. وأظن ان اصوب آراء شوقي هو انـه لم يرد ان يكون شيئاً غير شاعر كبير لا يقال لسيده انه يوجد في غـير المعية السنية من هو أشعر منه . فكان طبع شوقي ظرفاً لا يسع مع الشعر حاجة اخرى .

ولم يخلط شوقي الشعر بالسياسة ولا التجـارة ولا الفقه ولا الادارة ولا الزراعة ولا عمل من الاعمال الاخرى التي يتعاطاها الناس ، وكثيراً مـا قرنوا بعضها ببعض فأخذ العمل الواحد من قوة العمل الآخر . وقلمـا زاول الانسان عملين الا غلب احدهما عليه او قصر في الاثنين . وقد علم شوقي بثقوب فكره انه ان حـاول ان يكون سياسياً عظيماً او ادارياً ماهـراً او زراعياً متقناً او اقتصادياً مدققـاً سلبت عنايته بمهنته هـذه من ملكته الشعرية بمقدار انصرافه عنها الى غيرها فقصر عن ادراك الامد الاقصى الذي لم يزل مطمـح نظره في الشعر وقعـد عن الرتبة الادبية اللائقة بمن يقال له شاعر الامير وامـير الشعراء . وكما ان لقب شاعر الامير وامير الشعراء كان يزيد شوقي نفاذاً في صنعته وصقالاً لقريحته كان يكسوه أيضاً امام الناس بهاء يستمده من منصبه ويلمع عليه بسبب حظوته عند الجناب العالي، فكان كل مِن لقبه وأدبه عوناً للآخر . (شوقي أو صداقة اربعين سنة)

القول في مدح الامراء والملوك

وقد عاب بعضهم على شوقي قضاءه عمره في مدح الامير ومدح السلطان والاشادة بذكر ذوي السلطة ، وربما عابونا نحن ايضاً لمثل ذلك وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا اشعارهم على مدح الامراء والملوك وزعموا ان في ذلك دليلًا على طلب الزلفى او التماس الجائزة .

والجواب على ذلك يحسن بنا ان نوضحه ايضاح من لا يبقي عليه ظلمة الابهام ، وهو :

جرت عادة الملوك والامراء سواء في الشرق او في الغرب من قديم الزمان ان ينتدبوا لأنفسهم رهطاً من الفصحاء من شاعر مفلق وكاتب مبرّز وخطيب مفوه ونديم مطرب ، وامثال هذا الضرب من ذوي المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الادبية الراجحة يشيدون بذكرهم في المحافل بالقصائد الشوارد او بالخطب الاوابد او بالمناشير الصادرة كعقود الفرائد مما يزيد في وقار الملك وسنام العرش وحرمة الرعية للراعي ويلقي على الافعال اقوالاً تزيد في بهائها وتضاعف من بقائها ، اذ لا يوجد

مثل الشعر والنثر تقييداً للمآثر وتخليداً للمفاخر ، فالشاعر الذي يتصل بملك من الملوك او امير من الامراء سواء في شرق او غرب لم يكن يجد من الغضاضة في شيء التغني في مدح سيده حتى لو لم يكن اهلاً لكل ذلك الاطراء ، لان مثل هذه الطبقة من الشعراء والادباء يذهبون الى ان الكلام انما هو للمقام لا للمقيم ، وان المقام انما هو رمز الامة وعنوان الملة . ثم قد شاءت الاقدار في أخريات الزمان ان يدخل الضعف على الدول الاسلامية بأجمعها وان تغلظ شوكة الاجانب الغربيين بين ايديها ومن خلفها وان تحيط بكثير منها وتأخذ على ايدي ملوك الاسلام فلا تبقي لهم سوى الرسوم والالقاب ، ويتغلغل نفوذ الاجانب في هذه الحكومات المغلوبة على امرها فتصير الامة التي في مثل هذا الموقع وقد اخذ الاجانب بخناقها تتطلع الى اميرها الاصلي وتعزز من مقامه وتضاعف من إجلاله بناء على انه هو رمز استقلالها الوحيد ، فالمبالغة في إجلال هذا الرمز انما هي المبالغة في حفظ الاستقلال نفسه .

فعندما يهتف شوقي ومن في نمطه بتلك القصائد الرنانة ، إما في مدح عزيز مصر او في مدح الخليفة الاعظم ، فانما هو في الحقيقة يشيد باستقلال مصر في وجه الاجانب الطامعين المستأثرين بالامر ، وعندما يرسل كلماته الخالدة في مديح السلطان الخليفة

فانما يقدس مقام الخلافة العزيز على المسلمين ، الناظم لشملهم ، القائم في وجه عدوهم . فليس في هذا المذهب ما يدل على سلوك طريق التزلف كما يظن من لا يدقق في اسرار الامور ، ولكنها الصارخة القومية والنزعة الاسلامية والنضح عن حوض الخلافة والذود عن بنيان السلطنة . وهذا أشبه شيء بالدعاء الذي يقال في الجوامع نهار الجمعة استنزالاً من عند الله لنصر سلاطين الزمان الحافظين لكيان الامة في الداخل والخارج ، وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم وانما هو للمقام الذي يتبوأونه، لا يزال الخطيب يدعو لهم حتى اذا زال الواحد منهم عن كرسيه دعا لخلفه . ولا يقال في مثل هذه الحالة ان خطباء الجوامع متزلفون ، وانهم لذلك ليسوا على شيء من حرية الفكر . فالكلام هنا راجع كله للدولة مقصود به مجد الأمة ، وليست هنا الاشخاص هي القصد من الرسوم. وأيضاً فان هؤلاء الملوك والامراء يبرون شعراءهم ويغمرونهم بالنعم الجسام ويحسنون اليهم بأنواع الاحسان، والنفوس مطبوعة على حب من أحسن اليها ، وقد قال المتنبي :

ومن وجد الاحسان قيداً تقيّدا

فلا عجب ان يكون احمد شوقي قد قال في الخديوي

السابق القصائد التي سارت في البلاد، وترنم بها الحاضر والباد، وقال مثلها وأحسن منها في السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي بمديحه تطيب نفوسهم وتهتزّ أعطافهم. ويزيد هذا البرهان ظهوراً أنه لم تكن تقع حرب تظهر فيها قوة الدولة ويتلألأ مجد الملة الا وجدت شوقي قد جاء يجرّ جحفل فصاحته ويرفع لواء بلاغته، كما نظم في حرب الدولة مع اليونان تلك القصيدة الباقية التي بذ فيها شعراء العالمين وساوى فيها شعر المتقدمين.

ولقد درت درر شوقي في مديح الخديوي السابق بخيرات وشّت بروده وكفته مؤونة العيش الابله، فما من شعر اخضرّ له رعيٌ وأورق له غصن كشعر شوقي، وهذه هي عائلته تتقلب ولله الحمد في النعماء التي أثّلها شعره.

واما انا فقد كان اكثر فراري من الشعر خشية ان يظن بي مزاولته تكسباً لا تأدباً، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب، فكنت اذا مدحت السلطان فانما امدحه لأجل أمتي التي هو سلطان عليها، وكنت انشر قصيدتي في الجرائد ولا أقدمها الى الحضرة السلطانية. وفي احدى المرار عندما كنت في ريعان الصبا نظمت قصيدة واستنسختها بخط انيق وموهتها بالذهب وقصدت تقديمها للمابين الهمايوني كما كان يقال، ثم عدلت عن ذلك واكتفيت بنشرها في الجرائد. وقد

سبق أني لما أشار عليّ الاستاذ الامـام بأن أنظم شيئاً للخديوي محمد توفيق، رحم الله الاثنين، نظمت قصيدة لم أغفل ان أختمها بهذين البيتين :

وإني اذا أهـدي العزيز مدائحي
أبوء بصدق القول غـير مفنَّدِ

وإلا فما حاولت إدراك غاية
بشعري ولا نظم القصائد مقصدي

وهذا حرصـاً مني على ان لا يفهم الخديوي رغبـة مني في المكافأة، وفي هذا مني نظر الى قول أحد شعراء الأندلس وكان من أبناء البيوتات :

ومـا أنا بالباغي على الشعر رشوة
أبى ذاك لي جـدّ كريمٌ ووالدُ

وأنيَ من قوم قديمـاً وحادثاً
تباع عليهم بالألوف القصائـدُ

(شوقي أو صداقة اربعين سنة)

العرب ديمقراطيون

ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالالقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم. وانما كانوا في أيام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء أمير المؤمنين لا غير . فكل ما دخل في العربية والعرب من ألقاب التعظيم والتفخيم إنما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال أهل البادية – الى يومنا هذا – ينادون شيوخهم وأمراءهم بمجرد اسمائهم. فاذا أرادوا ان يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : يا أبا فلان . هكذا يخاطبون الملك ابن سعود والامير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل ابن الحسين مؤخراً وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازي ، كما يعرف ذلك كل أهل الشام ، فهذه هي الديمقراطية الصحيحة . وكانوا في العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

وكان الاحنف يقول لمعاوية : والله يا معاوية ان السيوف التي قاتلناك بها لهي في اغمادها . وخطب ابو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : ايها الناس اتقوا الله . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : اذكرك الذي ذكرتنا به . فأجابه الخليفة : سمعاً سمعاً لمن ذكّر بالله .

نعم ان كان في الدنيا، شرقها مع غربها، قوم ديموقراطيون فعلاً فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ . لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقاً وحزقاً ليس لهم امر جميع ولا ملك ضخم، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها ، وأما العرب فانها أعزّ نفوساً وأحمى أُنوفاً من أن تطيع ملكاً ، بل تجد العرب كلّهم ملوكاً . وكما كان ذلك دليلاً على شمم العرب وعزّة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية في تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدّة مناظرة بعضها لبعض ، مما آل الى فقدها الملك العظيم الذي كان لها، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التي كانت آفة على سلطان العرب في كل مكان، والسبب في وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربي اوربا .

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هي دعوة الاسلام ، وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديمقراطية بما في الاسلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن الخطاب : لسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وابناء الاصفر قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعاً لسلطاننا ؛ بل نحن في نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، واثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ .

واما المشاورة فإلى اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملاً الا برأي شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لا بل فرض اوجبه الله في كتابه ، قال تعالى : « وشاورهم في الأمر . » وقال : « وأمرهم شورى بينهم . » وكان النبي، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في احدى خطبه : ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر . لذلك جميع الحكومات الاسلامية هي شورية ديمقراطية فطرة وخلقة ، والاستبداد فيها عارض ، ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

(حاضر العالم الاسلامي)

مناقب السيد رشيد رضا

لم يكن السيد رشيد استاذي بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة لأني لم أقرأ عليه شيئاً من العلوم ولا كان من الفرق بيننا في السن أكثر من بضع سنوات ، ففي سنة ١٩١١ عندما مررت بمصر قاصداً الجهاد في طرابلس الغرب جرى بيننا حديث العمر، وكنت أنا انتهيت من سن الاربعين، فقلت له: أنت أكبر مني بقليل. لعل الفرق بيننا سنة. فقال : وكم عمرك الآن ؟ قلت : أكملت الاربعين . فقال : بيني وبينك خمس سنوات بالاقل .

وانما كنت اعده استاذاً لي بما أستفيد من كتبه ورسائله وبما أستفتيه دائماً في مشكلاتي من كل نوع ، فما استوريت زنده في فن إلا أقبسني وأزال حيرتي ، وما وردت حوضه المشفوه في حادث إلا رواني ونقع غلتي .

ولقد روى الأخ الوفي الكاتب البارع السيد محمد علي الطاهر صاحب «الشورى» انه رآني في بور سعيد عندما تلاقيت مع السيد رشيد عانقته وعانقني وجرت دموع الاثنين ثم أهويت على يده فقبّلتها .

نعم قبّلت يد العلم والفضل .وقبّلت اليد التي طالما ناضلت عن الاسلام وتناولت قلماً من نوادر الاقلام التي كشفت الكرب عن وجوه المسلمين ، وان من أعظم حسرات قلبي أن اكون بعيداً عن مصر وان أُحرم تقبيل تلك اليد قبلة الوداع الاخيرة .

عندما دعتني لجنة المؤتمر الاسلامي برقياً للسفر الى الحجاز بمهمة الصلح بين الامامين وودعت العيال قالت لي أم البنين وأنا على ثنية الوداع : ستكون لك فرصة هذه المرة ان ترى الشيخ رشيد. لم تذكر سواه من أصحابي لأنها كانت تعلم أنه أعز عليّ من الجميع .

ولم أكن انا اعتقد ان الحكومة المصرية تبلغ من التضيق عليّ في اثناء مروري من الاسكندرية الى السويس المبلغ الذي رأيته ودهشت له كما تحير له جميع الناس ، فكنت وانا راكب الطيارة من برنديزي الى الاسكندرية طائراً فرحاً بتصوري قرب لقاء الاخوان ولاسيما الشيخ رشيد. فلما وصلت الاسكندرية ووجدت عند نزولي من الطيارة ذلك الماجور الانكليزي ماثلاً يقول لي انه مأمور بمرافقتي الى السويس ، وحوله الجنود والضباط ، علمت ان الاذن لي في التعريج على القاهرة غير مأمول . ولما جاء الدكتور سعيد طليع يسلّم عليّ ، فحال

الماجور الانكليزي بيني وبينه حيلولة لا تدل على شيء من الكياسة ، علمت ما هو أمرٌ من عدم المرور على القاهرة ، وهو اني لن اقدر ان اجالس اصحابي ، واني سأحرم التحدث الى الاستاذ . ولما ركبنا القطار ركب معنا الأخ محمد علي الطاهر، ولكنه برغم الصراع الذي وقع بينه وبين قائد الالف البريطاني المذكور لم يتمكن من محادثتي. وفي اثناء الطريق صعد الاستاذ المرحوم وتقدم حتى حاذى العربة التي كنت فيها . وكنت أنا اتحاشى مصافحة اي انسان خشية ان يتجرأ البينباشي الانكليزي عليَّ بإبداء ملاحظة بعد ان رأيت ما رأيت فيسرع بي التأثر الى ان اواجهه بما يكره . ولكني لما بصرت بالاستاذ أمام الباب اقامتني من مكاني قوة فجائية لم استطع ان أغالبها ، وذهبت وصافحت السيد وقلت للبينباشي: لا بد لي من مصافحة هذا الاستاذ الذي هو عالِم العالَم الاسلامي. فسكت وابلس. ولكن لم يقع بيني وبين الأخ الفقيد اي حديث ، ولا قدر ان يقول لي الا هذه الجملة: «لا عجب.» وبقي املي معلقاً بالاتصال معه في السويس ، فخاب هذا الأمل ايضاً ، لأنهم حالوا بيننا وبينه هناك ، وحالوا ايضاً بيني وبين زملائي في وفد الصلح : الحاج امين الحسيني، ومحمد علي باشا علوبة، وهاشم بك الاتاسي، بحجة ان الكلام معي ممنوع على اطلاقه ما دمت في ارض

مصر . ولذلك بقي الحجز علينا الى ان صرنا على متن الباخرة .

اما في رحلتي الاولى الى الحجاز فقد كانت الوطأة أخف ، وقد كانوا اكتفوا بوضع الارصاد من حولنا بدون منع الاتصال والاختلاط مع الاصحاب ، فجلسنا في بور سعيد نتحدث وبللنا من صدى الشوق ما لا ازال اتنعم بمجرد ذكراه. ولما اراد السيد الانصراف فيمن انصرفوا قلت له : لا . ارجو ان ننعم بالملازمة من البحر الابيض الى البحر الاحمر . فلم يفترق عني من بور سعيد الى السويس ، وهناك ذهب بنفسه واشترى لي الاحرام حتى يكون حاضراً عند محاذاتنا لرابغ حيث يحرم الحجاج الواردون من الشمال ، وناولني رسالة له في مناسك الحج حتى أعمل بها ، لأنه كان، رحمه الله، يعلم اني في الامور الشرعية لا أُقلد غيره. وقد كتب مرة عني في « المنار »: « انه لا يلذ له شيء مثل الصلاة بإمامتنا » وهذا والله صحيح .

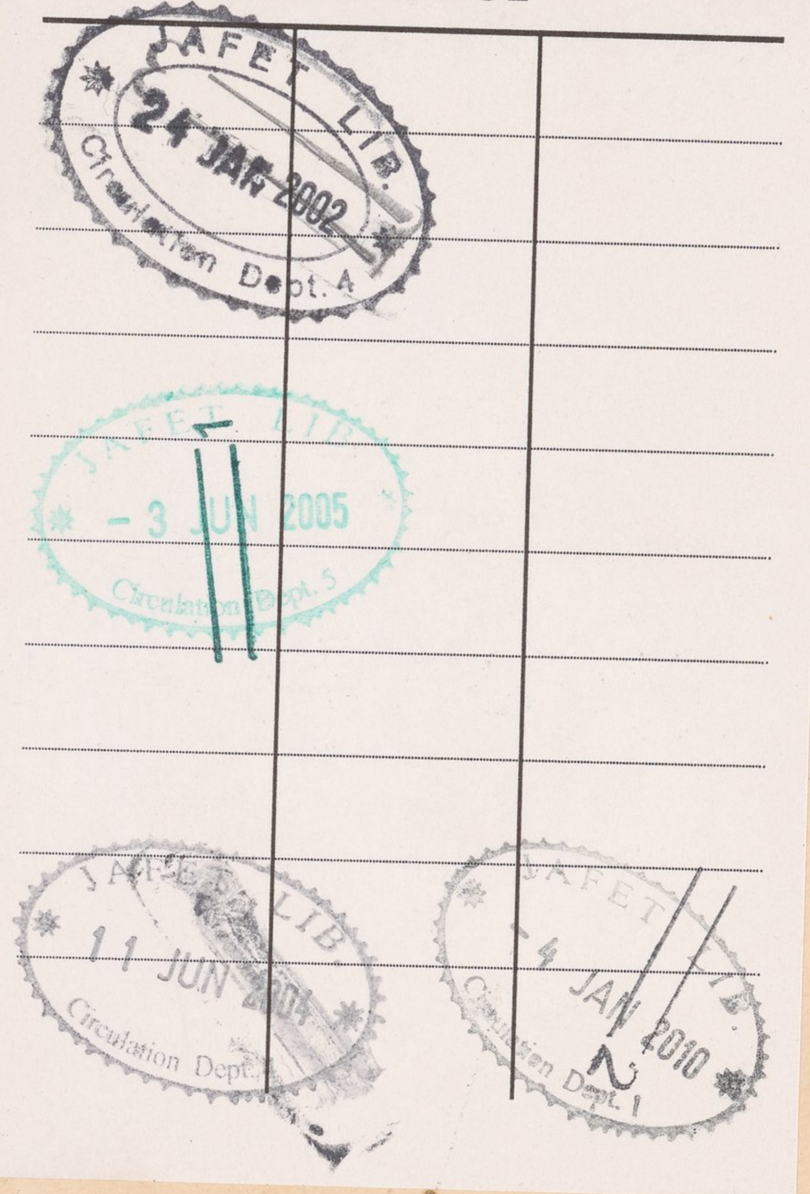
(السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة)

شكيب ارسلان

مناهل الادب العربي

١ جبران خليل جبران
٢ ميخائيل نعيمه
٣ احمد فارس الشدياق
٤ ولي الدين يكن
٥ امين الريحاني
٦ ابو العلاء المعري – رسالة الغفران ١
٧ أبو العلاء المعري – رسالة الغفران ٢
٨ أبو العلاء المعري – كتب مختلفة
٩ ابو العلاء المعري – اللزوميات ١
١٠ ابو العلاء المعري – اللزوميات ٢
١١ بطرس البستاني
١٢ ابرهيم اليازجي*
١٣ ابرهيم اليازجي**
١٤ الشريف الرضي*
١٥ الشريف الرضي**
١٦ الشريف الرضي***
١٧ كرم ملحم كرم
١٨ الموشحات الاندلسية*
١٩ الموشحات الاندلسية**
٢٠ الموشحات الأندلسية***

٢١ ابن خلدون – المقدمة*
٢٢ ابن خلدون – المقدمة**
٢٣ ابن خلدون – المقدمة***
٢٤ ابن خلدون – المقدمة****
٢٥ ابن خلدون – المقدمة*****
٢٦ الامام علي – نهج البلاغة*
٢٧ الامام علي – نهج البلاغة**
٢٨ الامير شكيب ارسلان


DATE DUE
JAFET LIB.
24 JAN 2002
Circulation Dept. A
JAFET LIB.
- 3 JUN 2005
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
11 JUN 2004
Circulation Dept.
JAFET LIB.
- 4 JAN 2010
Circulation Dept. 1